مقعد منزل جمال الدين الذهبي

[انظر مقال «الدار الاسلامية في مصر» صفحة ٢١٧]

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٤١

٧ رجب سنة ١٣٦٠

الحرب والمرض

١ — لمحة تاريخية

من الأقوال العامة في الحرب المرض المسلّم بصحتها قول قديم مؤداه ان المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الاسلحة . وقد اشار المؤرخون الى ما يؤيد هذا القول في حملة زركسيس الفارسي على اليونان ، وفي الحروب الصليبية ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولاسيما حروب نبوليون في عهده الأخير عند ما ضاق الخناق عليه وعلى قارة اوربا . أما الحروب القريبة منا فمنها حرب القريم وقد تفشت في اثنائها حمى التيفوس والهواء الأصفر والديسنطاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية ففتكت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال . وفي الحرب الأميركية المكسيكية (١٨٤٦ — ١٨٤٩) بلغت الاصابات الناشئة عن المرض في الجيش الأميركي سبعة أضعاف الاصابات الناشئة عن القتال . وفي الحرب الأهلية الأميركية قتل المرض ١٨٦ الفاً من الجند ولم يُقتل في المعارك الاّ نصف ذلك

وكانت العناية بصحة الجيوش والسيطرة على شتى الأمراض المكروبية قد تقدمتا تقدماً عظيماً عند ما خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٧ فتوازنت خسارتها من ابنائها بالقتال وبالمرض . أما في بلدان اوربا نفسها فقد زاد معدَّل الوفيات في شتى الشعوب الأوربية في اثناء الحرب العالمية الأولى زيادة بالغة حتى فاقت المعدَّل السوي أضعاف أضعاف . وقد أثبت العالم ليمن هرش الاحصائي المدقق بجامعة جنيف ان خسارة اوربا من

الأهلين بسبب الحرب العالمية الأولى بلغ اثني عشر مليوناً او زاد عليها قليلاً . وهو رقمٌ قريب من خسارة اوربا في الجنود الذين قتلوا في المعارك او توفوا متأثرين بجراحهم او بأحد الأمراض

***

ان مشكلات الطب والصحة العامة في اثناء الحرب لا تختلف في اصولها عما يقابلها في اثناء السلام. ووجه الاختلاف في الكثرة واتساع النطاق وتمهد الطريق لاستفحال العدوى وانتشار الامراض بسبب النقص الغذائي الذي تفرضه احوال الحرب على الأهلين وكذلك التعرض لشتى العوامل ومنها تقلب الحالة النفسية بين الخوف والطمأنينة واليأس والأمل

والواقع ان تحوُّل الحرب الحديثة الى حرب كلية محا الفوارق القديمة بين القوات المسلحة والشعب . نخط القتال انتقل الى شارع المدينة وساحة القرية وجعل البيت والدكان والمصنع والمدرسة والمعبد جميعاً أهدافاً للهجوم . فطب الجيوش غدا لا يفرق في شيء ما تقريباً عن الطب الأهلي والصحة العامة في اثناء السلام

وليس ثمة ريب في ان الصحة العامة تتأثر بكل ما يؤثر في صحة الفرد وهو مجموعة من العوامل المتفرقة منها ما يُسندُ الى الوراثة ومنها ما يعزى الى البيئة ومنها ما يرجع الى تفاعل الوراثة والبيئة في جسم الانسان وما يتصل بهذا التفاعل من حالةٍ تواضعنا على تسميتها أو وصفها بالحالة النفسية او العصبية . ومن أغرب ما يروى في هذا الصدد زيادة الاصابات ببعض الحالات الناشئة عن اضطراب الغدد ولا سيما الغدة الدرقية في اثناء الأزمة الاقتصادية العالمية وكذلك في السنة الثانية من الحرب الحالية في نيويورك وهي السنة التي تفاقمت فيها الحرب في اوربا وبدأت أميركا تتأهب لمساعدة بريطانيا وتمدُّ عدتها للدفاع عن نفسها . وتدل البحوث الاحصائية الطبية الأميركية إن حالتي النزف المخي والتهاب الكليتين بلغتا أعلى معدلهما في السنة الاولى من بعد خوض الولايات المتحدة معترك الحرب العالمية الأولى . ثم في السنة الثانية عاد المعدَّل الى مستواهُ المعهود من قبل . والحالتان متصلتان بارتفاع ضغط الدم ، وضغط الدم متصل بالحالة النفسية والعصبية ، فلا غرو ان يكون نشوب حربٍ او تفاقم ازمةٍ وهما من أبعث البواعث على اضطراب الخواطر سبباً في زيادة حالات مرضية منوعة

فبحث موضوع « المرض والحرب » وما طرأ من جديدٍ على الصلة بينهما يقتضي رسائل مطولة او كتباً ضخمة . ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ ولذلك سنعالج في ما يلي من الصفحات ناحيتين من هذا الموضوع ، لعلهما كانتا في الماضي أحفل النواحي بتأثير الحرب في صحة الجيوش والشعوب وهما الجوع والوبأ (١)

---

(١) الاعتماد في هذا المقال على فصل في مجلة هاربر الاميركية للكاتب العلمي جورج غراي

٢ – الجوع والحرب

لم تكد تنتصف سنة ١٩١٨ حتى كان الطعام قد قلَّ في المانيا والنمسا وكثرت الأمراض الناشئة عن نقص الغذاء. ومنها أمراض ظُـنّ أنها معدية كالبلاجرا، وهو مرض نعلم الآن ان مردّهُ الى نقص خاص في بعض أصناف المواد المغذية. وانتشرت في أوربا ملايين من الاصابات بما وصف حينئذٍ بلفظي «الاستسقاء الوبائي»، وهذا الوصف أطلق أولاً في الهند على مرض ظهر وتفشى في أثناء القحط العظيم (١٨٧٦ — ١٨٧٧) وظنّ كذلك انهُ معدٍ. ولـكن الحرب العالمية الأولى أثبتت ان مردّهُ على وجهٍ خاص الى نقص البروتين في ذلك الحساء المائي الذي تعوّد الناس تناوله لملء بطونهم. فنشأ عن هذا النقص انتفاخ البطون وتورّم السيقان وعمّ الـكساح كذلك ولاسيما في جماعات معينة وبخاصة مدينة ڤيِنّا

وكانت الجيوش تفضَّـل على الأهالي في ما يصيبها من مواد الطعام ولـكنها مع ذلك عانت كثيراً من هذا القبيل. فالجيش الايطالي مثلاً يعنَّـف تعنيفاً ساخراً كلما ذكرت معركة كابورتو التي خذل فيها خذلاناً شائناً في سنة ١٩١٧ ولـكن مؤرخي «طب الحرب العالمية الأولى» يقولون إن تقريعنا الايطاليين يخفُّ متى علمنا انهُ عندما نشبت المعركة كان قد مضى على الجيش الايطالي تسعة أشهر وجرايته أقل كثيراً من الجراية العادية وشبح الجوع يصاحبهُ ليل نهار

كان علم الأطباءِ بأصول الغذاء يسيراً مشتتاً من خمس وعشرين سنة. ولـكنهُ تقدم في خلال هذه السنين تقدماً عظيماً من شأنهِ ان توقى الجيوش والشعوب جانباً كبيراً من آثار الجوع. كان مقدار الحرارة الذي يولده طعام ما أساس «علم الغذاء» في عرف الطب قبل ربع قرن من الزمان. ووحدة الحرارة (الـكالوري) كانت الشعار والمقياس. نعم كان فريق من الباحثين قد كشف قبل سنوات عن عوامل غذائية اضافية لا يصلح طعامٌ ولا يتمُّ بدونها. وجرَّب بعضها تجريباً مقنعاً. ولـكن جل هذا البحث كان محصوراً في معامل البحث. حتى كلمة «ڤيتامين» — وهي اللفظ الذي عرفت بهِ هذه العوامل الغذائية — لم يعترف بها إلاّ في سنة ١٩٢٠ (استعملها أولاً الباحث فونك في سنة ١٩١١ وأطلقها على العامل الغذائي المقاوم للبربيري وهو العامل المستخرج من قشور الرز)

أما الآن فعدد الڤيتامينات المعروفة لا يقلُّ عن ثمانية. والأطباء وعلماء التغذية على علم غير يسير بتركيبها وتأثيرها والأمراض التي تنشأ عن نقصها وكيف تصنع في معامل التركيب الـكيميائي من مواد غير عضوية. وقد كشف الطب كذلك ما لبعض المعادن من تأثير عظيم في الغذاء، فمقادير يسيرة جدًّا من الـكلسيوم والفصفور والحديد واليود وغيرها تقدم وتؤخر كثيراً في حالة المرءِ الصحية. وهذه المعارف مهّـدت السبيل لصنع مركبات مركزة تحتوي على هذه المواد

المغذية اللازمة للحياة فتضاف الى الطعام العادي وتجهّز صاحبها بعناصر كانت ممتنعة عليها إما لجهله بها وإما لتعذر فوزه بالمواد الأصلية التي تحتويها كالليمون واللبن والفاكهة والخضراوات وما أشبه. ومن هذه المركَّبات مركَّبان صنعهما الدكتور هُرِس أستاذ كيمياء التغذية في معهد ماستشوستس التكنولوجي أساس أحدهما مزيج من دقيق الحنطة وفول الصويا وأساس الآخر مزيج آخر من الحبوب . وقد أضيف الى كلٍّ من المزيجين الفيتامينات والأملاح الضرورية . ولم يضف اليهما فيتامين C لأن الحصول عليه ميسور في عصير الطماطم الغضّ . ويقول الدكتور هرس ان مقدار ثلثي الأوقية من أحد المزيجين يكفي حاجة رجل الى الفيتامين والبروتين والملح في اليوم. فاذا أضيف الى طعام أيًّا كان تركيبهُ فاز جسم الرجل بما يقيه غائلة الجوع الصحيح. وصنع أستاذ في جامعة كاليفورنيا مزيجاً آخر من هذا القبيل وأفرغهُ في قالب حبوب كحبوب النعناع

قلنا « الجوع الصحيح » . والواقع ان الجوع في عرف العلم الحديث جوعان. أحدهما جوع البطن يكفيه موادتملؤه ولكنها قد لاتحتوي على جميع العناصر اللازمة للحياة . والآخر جوع النُسُج الحية في الجسم وهو الجوع الذي لا يكفيه الاَّ حصول تلك النسج على ما يلزمها من الفيتامينات والأملاح وغيرها من العناصر الحيوية (١)

هذه الحقائق حملت الحكومة البريطانية على تعزيز الدقيق الذي يصنع منه الخبز في المخابز على اضافة فيتامين B_1 (ب ١) اليهِ وكذلك عنصر الكلسيوم. وجارتها الحكومة الأميركية في ذلك (٢)

وليس في وسع احدٍ ان يحكم الآن في هل تصاب اوربا القارّة بأحوال من قلة الغذاء تماثل ما أصيبت بهِ الدول الأوربية المتوسطة في الحرب العالمية الأولى . ولكن لا ريب في ان البلدان المحتلة بدأت تصاب بنقص الغذاء واذا طال الصراع زاد نقص الغذاء. نعم ان المكتشفات الحديثة في علم الغذاء قد تمنع بعض عواقب القلة ، ولكن الفيتامينات لا تركب والاملاح لا تستخرج الاَّ من المواد اللازمة لها والمحتوية عليها . وعلاوة على ذلك يجب ان يتوافر لها العمال المتقنون وهؤلاء على الغالب من خيرة المتعلمين وربما تعذّر الاستغناء عنهم في معامل الأسلحة لكي ينهضوا بتركيب الأغذية للجماهير

ومع لزوم الفيتامينات والاملاح للصحة التامة فالجسم لا يستطيع ان يستغني عن مواد الطعام الاخرى التي « تملؤ البطن » . والمرجح ان نقص الطعام في قارة أوربا أمرٌ قد لا يفضي في هذه الحرب الى موت ملايين جوعاً كما ماتوا في اثناء القحط الروسي سنة ١٩٢٠ ولكنهُ قد يكفي لبث الوهن في قواهم فيصبحون عرضة لفتك الامراض اذ تكمل الميكروبات ما بدأه نقص الغذاء

(١) راجع مقال « البحث العلمي الحديث في الصحة والمرض والجوع » — مقتطف مارس ١٩٤١ ص ٢٢١

(٢) راجع مقال « دقيق مشبع بالفيتامين » مقتطف مايو — ص ٤٦٩

٣ — الوباء والحرب

يمهّد الجوع الطريق لتفشي الأوبئة ، لأنهُ يضعف الأجسام فتعجز عن مقاومة الجراثيم . وأشهر الأمراض التي يخشى تفشيها في الحرب الحالية هي الانفلونزا وذات الرئة والحمى المخيّة الشوكية والديسنطاريا وحمّى التيفوس والبرداء (الملاريا) . فكل مرض من هذه الأمراض كان له نصيب في ما حصده المرض بوجهٍ عام من النفوس في الحرب العالمية الأولى . والدلائل تدل على وجود آثارها جميعاً في اوربا مع أنّ مرضاً منها لم يتفشّ تفشياً وبائياً . ومن الجائز ان يتفشّى أحدها أو مرض آخر قبل انتهاءِ هذا الصراع كما تفشت الانفلونزا (1) في الحرب العالمية الأولى وبعيدها

ولكن للطب وسائل لكفاح هذه الأمراض لم تكن متاحة في اثناء الحرب العالمية الأولى. ثم أن الملاريا لا تزال متحدية الاطباء فلم تُقهر تماماً . وفي وسع طفيليها أن يختبيء في النسج أحياناً فلا يتأثر بفعل الكينين . فيبدو وهو مختبيء أنهُ قُهر، ثم يعود الى الظهور فيصاب صاحبهُ بالقشعريرة والحمّى . ومن نحو عشر سنوات صنع في ألمانيا عُقار بالتركيب الكيميائي يدعى اتبرين Atebrin يفوق الكينين في علاج الملاريا من وجوهٍ شتى . ولكنهُ غال واستعماله محدود بعوامل أخرى . ورأي الاطباء أنهُ لا بدّ من عقار آخر لقهر الملاريا قهراً تاماً . وقد اهتمت حكومة الولايات المتحدة الأميركية بالموضوع ، من وجهة الدفاع القومي فعينت مصلحة الصحة العامة فريقاً من أبرع باحثيها للاهتمام بتركيب عقار من هذا القبيل . والغالب ان هؤلاءِ الباحثين يستمدون أملاً كبيراً في احتمال النجاح مما رأوه من نجاح السلفانيلاميد ومشتقاتهِ في علاج امراض كثيرة علاجاً ناجعاً

ومن الامراض الفتّاكة التي عولجت علاجاً ناجعاً بأحد مشتقات السلفانيلاميد مرض الحمى المخية الشوكية . فقد كانت هذه الحمى في الحرب العالمية الاولى مصيبة الخنادق اذ تفشت فيها وباءً حاصداً وكان الاسرى يعرفونها باسم «حمى المعسكرات» او «حمى المعتقلات» . وكانت تنتشر حيث يحتشد اللاجئون او حيث يزدحم الناس في احوال من المعيشة لا تتيح لهم أسباب النظافة والغذاء الوافي . وكان معدّل الوفيات بها ثمانين في المائة من الاصابات

وقد ظهرت اصابات هذه الحمى في مستهل هذه الحرب . ومن عهد قريب وضع أحد الأطباء العسكريين تقريراً فنياً وافياً عن ١٢٤ اصابة في أحد المستشفيات الخاصة بعزل المصابين بها حدثت في شتاء ١٩٣٩ وربيع ١٩٤٠ ومما جاء في هذا التقرير ان استعمال عقار مشتق من السلفانيلاميد يدعى صولوسبتسين Soluseptasine في علاج هذه الحمى أفضى الى خفض معدل الوفيات الى ٣ في المائة (كان في الحرب العالمية الاولى ٨٠ في المائة) . وكان بعض هذه الاصابات شديداً

(١) راجع مستهل مقال الانفلونزا مقتطف ابريل ١٩٤٠ صفحة ٣٦١

حادًّا — ألمٌ شديد وقسمات شوهها الالم وشفاهٌ رمادية وعضلات متصلبة ، وكان بعضهم قد بدت عليهم عوارض الجنون وبعضهم قد فقد وعيه . ومن هذه الاصابات اصابة جندي ظن انهُ مات. كان منظره منظر جثةٍ ورائحتهُ رائحة جثةٍ. لم يكن لهُ نبض يجُس ولا نفَس يُحس وكان جسمه مغطى بلطخ قرمزية وكانت اوردته مطبقة فيشق على الطبيب تبيُّن احدها لحقنه فيه بالعقار العجيب . فلما وجده كان الدم الذي دخل الحقنة منه اسود

حقن هذا الجندي حقنتين بهذا العقار (صولوسپتسين) بينهما اربع ساعات فنزع من براثن الموت

* * *

من الامراض التي تفشت في فرنسا وغيرها من البلدان المحتلة في الخريف الماضي وظهرت بوادره في بريطانيا مرض الديسنطاريا الباشلسية. وقد حضِّرت مصول مختلفة من دم ناقهين من هذا المرض واستعملت في مكافحته فأسفرت عن بعض الفائدة . ولذلك عنيت اللجنة المختصة في اميركا بارسال مقادير من هذه المصول الى بريطانيا. ولكن يلوح ان السلفانيلاميد سيكون المعين الذي يؤخذ منهُ عقار لعلاج هذا المرض. ففي أحدث الانباء من مستشفى جامعة جونز هبكنز — وكليتها الطبية مشهورة — ان عقاراً مشتقاً من السلفانيلاميد يدعى سلفا جوانيدين — واسمه الكامل Sulfanilylguanidine علاج نوعيٌّ فعال ضد باشلس الديسنطاريا وكذلك ضد باشلس التيفود وهذا العقار جديد ولم يكن متاحاً في يناير من هذه السنة ولكن شركة كالكو الكيميائية التي تصنعهُ وزعت مقادير منهُ على الاطباء لمتابعة امتحانه السريري

وكانت ذات الرئة من الامراض التي فتكت فتكاً ذريعاً في أثناء الحرب العالمية الاولى بالقوات المسلحة فمات بها واحد من كل اربعة اصيبوا بها . ولكن الطب تقدم تقدماً عظيماً في مكافحتها بالمصول وبعقارين مشتقين من السلفانيلاميد هما عقارا السلفابيرادين والسلفاثيازول . فهذان العقاران علاجان نوعيان ضد ذات الرئة الناشئة عن ميكروب «النوموكوك». وقد يستعمل احدهما مع احد المصول في الحوادث الخطيرة . والسلفانيلاميد نفسه ناجع في علاج ذات الرئة الناشئة عن ميكروب الستربتوكوك . وعقار السلفابيريدين من المواد التي يحملها كل جندي بريطاني فيستعمل عند الاصابة بجرح او في المرحلة الاولى من العلاج

ولا يخفى ان الضربة القاضية في الانفلونزا تجيء على الأكثر عن طريق ذات الرئة. ولما كانت عقارات السلفانيلاميد فعّالة ضد البكتيريا المحدثة لذات الرئة فلا بد ان تكون ذات فائدة في انقاذ المصابين بالانفلونزا من الضربة القاضية . ولكن هذه العقارات لا تأثير لها — على ما يلوح — في ميكروب الانفلونزا فهو « ڤيروس » (راجع مقال الانفلونزا الذي تقدم ذكره) يخشى شرُّهُ كثيراً في اثناء هذه الحرب . وقد بذلت مساعٍ كثيرة لاشتقاق عقار من السلفانيلاميد يبطل فعل ڤيروس الانفلونزا فلم تسفر عن نجاح ما حتى الآن

ولكنّ النجاح في مكافحة الانفلونزا جاء من ناحية اخرى إذ كشفت طريقة لصنع لقاح ضدّ الانفلونزا . وكان الكشف اتفاقاً في معامل معهد ركفلر بنيويورك . ففي نوفمبر سنة ١٩٣٩ كان الدكتور هورسفول Horsfall والدكتور لينت Lennette يجربان التجارب ببنات عرس ملقحة بفيروس الانفلونزا واتفق أن أصيبت اربعة من هذه الحيوانات بمرض يصيب الكلاب ويعرف باسم Distemper فلما حضّر مصل من هذه الحيوانات الاربعة ظهر ان الحقن به يقي الحيوان المحقون من الانفلونزا . ذلك بان الحقن بهذا المصل يولّد في الدم اجساماً مضادّة للانفلونزا . وتعدّدت الامتحانات فثبت أن هذا المصل ينشىء مناعة ضدّ الانفلونزا مداها ستة أشهر . وقد يكون مداها أطول من ذلك . ولكن فعله الصحيح لن يعرف قبل ان تتاح تجربتهُ في حالة طارئة يتفشى فيها مرض الانفلونزا . غير ان جميع التجارب السريرية والعملية تبشر بالنجاح . وقد طعم عشرات الالوف من الاميركيين به وأرسلت مئات الالوف من جرعات هذا المصل الى بريطانيا في اثناء الشتاء الماضي

وحمى التيفوس من الأمراض التي تتفشّى في الحروب . وهي انواع منها نوع متوطن في المكسيك وشيلي والجزائر وبلدان أخرى معظمها استوائي . وهو يصيب الجرذان وينتقل منها الى الانسان بالبراغيث وحشرات اخرى . ونوع اخرى يعرف بالأوربي وهو أشد وأعنف من الاول وقد فتك فتكاً ذريعاً في اثناء الحرب العالمية الاولى في سربيا و بولونيا وروسيا وهو مرض يصيب الانسان وينتقل من امرىء الى آخر بالقمل . وفي البلقان بقية منهُ مختبئة . وفي اميركا نوع آخر يعرف باسم « الحمى الرقطاء » أو « حمى الجبال الصخرية الرقطاء » . وهو مرض يصيب الضأن وينتقل الى الانسان بواسطة القراد tick ومع انحصاره في مناطق المراعي في الشمال الغربي من الولايات المتحدة حدثت اصابات به في الساحل الشرقي

ووجه الشأن في ذكر « الحمى الرقطاء » جنباً الى جنب حمى التيفوس الفتاكة أن طبيباً اميركيًّا يدعى كوكس كشف من عهد قريب وهو يبحث في « الرقطاء » طريقة دقيقة بارعة لصنع مصل يقي من التيفوس . نعم سبقهُ باحثون الى صنع المصل ولكنهم واجهوا مشقة عظيمة في صنع مقادير وافرة منهُ . فاتخذ الدكتور كوكس جنين الفرخ (الكتكوت) في البيضة مزدرعاً له . ذلك بانهُ ثقب في البيضة ثقباً بعد انقضاء خمسة أيام أو ستة على حضنها ثم أدخل الميكروب في كيس الصفار فوجد ان الميكروب يتكاثر هناك تكاثراً عجيباً وبذلك حُلّت مشكلة « المقادير » و « النفقة » التي حالت دون صنع المصل قبلاً . وقد صنع احد المعامل الاميركية ألوفاً من الجرعات بهذه الطريقة وأعطيت لجمعية الصليب الاحمر الأميركي لتجربتها في بلد بجنوب أوربا الشرقي يكثر التيفوس في احد مناطقه ولكن الاحوال السياسية حالت دون ذلك . فاستعمل بعضها في هنغاريا

بشار بن برد

في الحرب

وكنا اذا دبّ العدوّ لسخطنا ... وراقبنا في ظاهرٍ لا نراقبه
ركبنا له جهراً بكل مثقفٍ ... وأبيضَ تستسقى الدماء مضاربه
وجيشٍ كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطّيّ حمرٌ ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها ... تطالعنا والطلّ لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمه ... ويدركُ من نجّى الفرارُ مثالبه
كأن مثارَ النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا ... بنو الموت خفّاق علينا سبائبه
فراحوا فريقٌ في الأسار ومثله ... قتيلٌ، ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه
اذا الملك الجبار صعّر خدّه ... مشينا اليه بالسيوف نحاربه

العبقرية والجنون

لعلي أدهم

فكرة العلاقة بين العبقرية والجنون ليست من الافكار الحديثة ، فقد لحظها القدماء وأشاروا اليها ، والمعروف عن افلاطون انه كان يتحدث عن جنون الشعراء المقدس ويؤثر عن ارسطو قوله «المبرزون في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون كان يغلب عليهم النزوع الى الحزن والاكتئاب » ، ولمح ذلك درايدن الشاعر الانجليزي وعبّر في شعره عن « اقتراب الذكاء من الجنون وان بينهما فاصلاً دقيقاً رقيقاً » وأكد هذه الفكرة في الأذهان وأرسخها على مرور الأجيال كثرة التقاء العبقرية والجنون

ومنذ سنة ١٨٠٠ أخذ البحث عن العلاقة بين العبقرية والجنون ينحو نحواً علمياً ، وقد وجه شوبنهاور شيئاً من الالتفات الى هذه الناحية ، وفي سنة ١٨٣٥ ظهرت أول ترجمة لسقراط من ناحية تطبيق المعلومات الجديدة عن العلاقة بين العبقرية والأمراض العقلية على حياة العظماء وكبار المفكرين وقد كتبها ليلي Lélut ، وفي سنة ١٨٥٩ ظهر كتاب مورو دي تورز وقد تناول المسألة من الناحية العامة ، وقد اعتبر العبقرية حالة من احوال الأمراض العقلية سببها فرط اهتياج المخ ، ولم يحاول مورو تحديد العبقرية او ان يلحق بها معنى من المعاني النفسية ، وهو يعتبر الرجال الذين قاموا بأعمال عظيمة في أية ناحية من النواحي عبقريين دون نظر الى اختلاف بنائهم النفسي والذين يشايعونه على آرائه لا مندوحة لهم عن الاعتقاد بأن كل الذين نهضوا بجلائل الأعمال كانوا مجانين ، وقد ظن مورو ان رأيه لا يمكن ان يتسرب اليه الشك لأنه كشف عن الكثير من امارات الجنون في سير العبقريين ، وقد أحصى حالات كثيرة من هذا القبيل قبلها المؤلفون الذين جاءوا بعده وترسموا خطواته وبنوا عليها وأضافوا اليها ، وزادوا مركزهم قوة باضافة استكشافات جديدة ودراسة حالات طريفة

ومن أوفى المؤلفات في هذا الموضوع كتاب لمبروزو عن «الرجل العبقري» وقد أثار زوابع من الخلافات ودارت حوله مناقشات حادة وجدل عنيف ، وهو على شمول بحثه واتساع نواحيه وغزارة معرفته لا يحاول تعريف العبقرية وتحديد معالمها . وفي الفصل الذي عقده للتحدث عن

فسيولوجيا العبقرية يذكر لنا ان العبقريين في الغالب «ساخنو الرأس مبرودو القدم» وهو يرى ان العبقرية تشبه الجنون من نواح كثيرة وقد أوضح في هذا الكتاب القيم ان بعض العبقريين — اذا أغضينا عن بعض شذوذهم — كانوا ابرياء من الجنون، وهو يذكر في قائمة هؤلاء سبنوزا وكولومب ودانتي وميشيل انجلو ، ولكنهُ عاد بعد ذلك وغيّر رأيه واعتقد اننا لم نلمح مظاهر الشذوذ وآيات الجنون في حياة بعض العبقريين لنقص معلوماتنا عنهم او لأنها لم تسترع نظرنا

وفي القرن العشرين ظهرت بحوث مختلفة في هذا الموضوع ويعتقد الكثيرون انها اكدت ما ارتآه مفكرو اليونان . ومن الباحثين الذين يقولون بذلك البحاثة الألماني ولهلم لانج ايكباوم ، فهو يعتبر الجنون عنصراً من العناصر الرئيسية في تكوين العبقرية ، ومن انصار هذا الرأي البحاثة الانجليزي (نسبت) وقد تتبع في كتابهِ عن « جنون العبقرية » آثار الشذوذ ومظاهر الجنون في حياة الكثيرين من البارزين في نواحي الحياة المختلفة

والعلوم العقلية قائمة على التجربة ، وكل ما نعلمهُ عنها مستمد من التجربة والمشاهدة وقد عرفنا من التجارب ان هناك ضروباً من الاضطرابات النفسية تنتهي بفقدان الوعي وانهيار الاعصاب ، وفي احوال معينة أخذت القوى العقلية في الضعف والانحلال حتى عجز المريض في في نهاية الأمر عن العمل عجزاً تامًّا ، وبهذه الطريقة العملية المحضة استقر رأي الباحثين في الامراض العقلية على وجود ألوان مختلفة من الامراض العقلية لكل منها مظهره الخاص وسيره المعروف. وبموازنة حالات المجانين الذين لا موضع للشك في جنونهم بحالات عقلاء الناس ودراسة المميزات والفوارق النفسية بين الاثنين وصل علماء النفس الى معرفة الكثير من علامات الجنون ودلائل التياث الاعصاب

ويحسن ان نلاحظ هنا ان العلامات المصاحبة لبعض الامراض العقلية لم تكن هي في بادىء الامر الدليل على وجود تلك الأمراض ، بل الأمر على نقيض ذلك فقد أدرك العلماء أهمية تلك العلامات بعد دراسة عناصر المرض ، مثلاً في الاوقات السالفة لتقدم الامراض العقلية كان خداع الحواس يفسر تفسيراً صوفيًّا ومن قبيل ذلك الرؤى المقدسة ورؤية العفاريت ، ولكن دراسة الامراض العقلية هدت علماء الامراض النفسية الى أن خداع الحواس في غالب الاوقات من العلامات المصاحبة للامراض العقلية

وبدراسة سير الامراض العقلية وما يطرأ عليها من تطورات وما يقترن بها من علامات استطاع علماء النفس ان يشخصوا الامراض العقلية في مراحلها الاولى حيث تغيب آثارها عن عيون الكثيرين ، وهذا كان من نتائج المشاهدة وثمرات التجربة

ولكن كل تجربة جديدة تحمل في ثناياها مشكلات جديدة ، وذلك لان المنهج العلمي

الصحيح يقتضي أن نستخلص النتائج من التجارب والمشاهدات ، وقد تزيف التجارب الجديدة النظريات السابقة لانها تناقضها مناقضة واضحة أو لانها لا تطابقها

من أمثلة ذلك انهُ قد لوحظ ان امراضاً عقلية كثيرة مثل البارانويا وأنواع الملاخوليا والشلل العقلي كانت مصحوبة في الغالب بخداع الحواس، ثم كشفت التجارب بعد ذلك ان كثيراً من العبقريين كانوا مستهدفين لخداع الحواس فهل نستخلص من ذلك ان هؤلاء العبقريين كانوا مجانين ؟ هذا هو الاستنتاج الذي انتهى اليهِ مورو ولمبروزو ، ولكن هل هو استنتاج منطقي جارٍ على سنن التجربة والاصول العلمية ؟

وواضح من ذلك ان مورو ولمبروزو ومن لفّ لفهما يأخذون مسألة ان خداع الحواس لا يحدث الاّ في حالات الجنون قضية مسلمة وحقيقة غير قابلة للنقض او التعديل ، في حين أننا قد نلتقي برجل قد اختلّ ميزان عقله وشرد فكره وفقد وعيه فلا نرى مندوحة عن وصفه بالجنون ثم نلتقي برجل آخر قد أتى بأعمال باهرة أثارت الاعجاب والدهشة وهو يتصرف تصرف من يعي ما حوله ألا يقتضي ذلك ان نعدّ مثل هذا الرجل عاقلاً بلا ريب ؟

قال شارلز لامب «من الممتنع على العقل ان نتصور شكسبير مجنوناً» وفي رأيه هذا كثير من الحق والاصالة ، على ان جيتي معروف أكثر من شكسبير ، وقد كان مثالاً للرجل الكامل الشخصية المتعدد النواحي ، وقد حاز اعجاب من عاشروه جميعهم ، عدّه قوم اعجوبة من أعاجيب البشرية ، وقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الذين كان لهم حظوة لقائه والتعرف اليه ، وقد كان مثالاً للرجل المكتمل العقل السليم الفهم ، وقد كان جيتي نفسه هدفاً لخداع الحواس وذلك باعترافه نفسه فهل نستخلص من ذلك انه كان كذلك مجنوناً ؟ أليس الأقرب الى المعقول في أمثال هذه الحالة ان نعترف بأن حسباننا خداع الحواس من علامات الجنون خطأ ؟ وان علينا ان نفرق بين خداع الحواس الذي يعرض للعقلاء وخداع الحواس الذي يلازم المجانين

وأهم علامة مميزة للعقل وسلامته وثبات بنيانه هي نمو العوامل النفسية نمواً متوازناً ، ولكن عند تقدير ذلك النمو والنظر في تفاوت نسبه يلزم ان ننظر الى مسألة الصحة والمرض نظرة واسعة شاملة ، فقد يمتاز بعض الناس بسرعة المضاء والمقدرة التنفيذية والكفاية العملية ، وقد يغلب على البعض حدة الشعور ويقظة الاحساس ، وليس عندنا هنا ما يبرر القول بأن أمثال هذه العقول قد تجاوزت منطقة الصحة ، وهذه الفروق الكامنة في علاقة العوامل النفسية بعضها ببعض هي التي يتكوّن منها تنوع المواهب واختلافات الاخلاق

وكلما ارتقى الفرد في مراتب التقدم كثرت الخلافات ودقت التنوعات وتباينت العوامل النفسية ومن ثمّ تتسع الزاوية التي ننظر فيها الى المسألة من ناحية الصحة والمرض ، ونحن

حريون بأن نقيس العبقريين بمقياس أوفى وأشمل من المقياس الذي نقيس به العاديين من الناس

ولنختبر الآن بعض العلامات المختلفة التي ظهرت في عظماء الرجال ونحاول ان نوضح الفرق بينها وبين العلامات المميزة للجنون ، وقد جمع مورو ولمبروزو قائمة كبيرة بأسماء العظماء الذين قيل عنهم أنهم أصيبوا بخداع الحواس ، وقد حوت هذه القائمة فيمن اشتملت عليهم اسماء نابليون ولوثر وبرنادوت وبيرون وكروموبل وسقراط وبروتس

ولا بأس في أن نلاحظ هنا ان الأساس نفسه الذي أقاما عليه الدعوى هو الى حد ما موضع الشك ، وكلنا نعرف ان سِيَر الكثير من العظماء حافلة بالاكاذيب والمبالغات والطرف والنوادر والأساطير والخرافات ، وكثيراً ما تمتزج هذه الاختراعات الموضوعة بالحقائق امتزاجاً يصعب معهُ التمييز بين الحق والباطل ، ثم يأتي كاتب من الكتَّاب وينقل عن الكاتب الذي سبقه ويقبل القصة بقضها وقضيضها ويعتبرها حقيقة تاريخية

وعلماء الأمراض النفسية أنفسهم يجدون صعوبة في التأكد من حدوث خداع الحواس حتى عندما يكون المريض ماثلاً أمامهم وتحت فحصهم ومراقبتهم ، وليست شهادة المريض نفسه ولا شهادة الأمناء عليهِ بكافية ، ويعتمد أكثر الأطباء في ذلك على ملاحظاتهم الشخصية ، ولذا يتسع المجال للشك عندما تكون المسألة قائمة على التسليم بما نقله أحد الكتَّاب عن كاتب من الكتَّاب الأوائل . وقد روى بلوطارخ مثلاً أنهُ في الليلة السابقة لمعركة فيلبي ظهر شبح يوليوس قيصر لبروتس ، فهل تقبل هذه الرواية بلا مراجعة ولا تعقيب ؟ أليس هناك ما يدعو الى ان نختبر الشاهد ونستفسره عن المصدر الذي استقى منهُ هذه المعلومات ؟ ولكن هذا غير ميسور عمله الآن وهذا هو النص « كان قد مضى هزيع من الليل وكان ضوء واهن ينبعث في خيمة بروتس وقد ساد الصمت وأظل المعسكر برمته وكان بروتس مستغرقاً في التفكير فخيل اليهِ فجأة أنهُ يسمع وقع أقدام شخص يسترق الخطى فنظر صوب الباب فرأى منظراً مرعباً غريباً ، رأى شبحاً بادي الكآبة رهيباً قد وقف الى جانبه ، فاجترأ بروتس على ان يسأله قائلاً « من أنت ؟ » أإلهٌ أنت أم إنسان ؟ وماذا تريد ؟ ولماذا تأتي اليَّ ؟ فأجابه الشبح « روحك الامارة بالسوء وستراني في فيلبي » فقال له بروتس بلا اكتراث « ليكن ذلك »

ولم يذكر بلوطارخ علامَ اعتمد في هذه الرواية . فكيف نقطع بصحتها اليوم ؟ أليس من المحتمل ان يكون بلوطارخ قد نقل عن غيره أسطورة ملفقة لا سند لها من الحقيقة ؟ ولكن لنفرض ان الرواية صحيحة لا غبار عليها فهل هي كافية في الدلالة على خداع الحواس ؟ لقد وقعت الحادثة في الليل فمن المحتمل الى حدٍّ كبير ان تكون حلماً صوَّره خيال بروتس وهو في حالة اضطراب نفسي وثورة داخلية فخاله حقيقة واقعة

وروى عن كرومويل انهُ كان في شبابه مستلقياً ذات يوم في فراشه وقد نال منهُ الاعياء فظهرت له امرأة ضخمة طوال وقالت له « انك ستصبح أعظم رجل في انكلترا» ولكن من يثبت لنا ان كرومويل وهو مستلق في فراشه لم يكن قد أخذته سنة من النوم وان المسألة كانت حلماً من الأحلام ؟

وتروى عن لوثر روايات من هذا القبيل ويمكن اخضاعها لنفس هذا التفسير والنظريات العلمية التي تقوم على ملاحظات مشكوك في صحتها لا يصح قبولها في يسر وسهولة ، ولا مفر من غربلة الاخبار التي تروى عن العظاء والتثبت من صحتها حتى لا نخطىء في استخلاص النتائج من المقدمات

على ان هذه الروايات على ما فيها من مبالغات وأوهام تنطوي على شيء من الحق ، فمن الحقائق غير المنكورة ان خداع الحواس كان يعرض لرجل لا خلاف في عبقريته وعظمة شخصيته مثل جيتي ، وقد لاحظ علماء الامراض العقلية ان خداع الحواس الذي يصيب المجانين له نظير مماثل في قدرة بعض الاشخاص على استحضار تأثرات الحواس ، وهذه القوة تنمو بدرجات متفاوتة في أمثال هؤلاء الاشخاص ، والصورة المستحضرة في الغالب أضعف من الاصل سواءا في تخطيطها او في ألوانها ولكن في حالات نوادر لوحظ ان قوة الاستحضار قد سمت وبلغت حدًّا من التفوق لا مزيد عليه الى حد أنها صارت تعادل في الوضوح والقوة صورة الاحساس الأصيل . وقد روى لمبروزو عن أحد المصورين انه كان يكفيه ان يتأمل شخصاً ما مدة نصف ساعة ويستطيع بعد ذلك ان يستحضر أمامه صورة وهمية له ويشرع في رسمها بوضوح وثقة كأن صاحب الصورة لا يزال ماثلاً أمام ناظريه . ومن الخلط وإساءة الفهم ان نعتبر هذه المقدرة ضرباً من خداع الحواس الذي يصيب المجانين لان المصور يستدعي الصورة وفق ارادته ويسخرها لاغراضه الفنية ثم ينفيها بعد ذلك في حين ان الصورة التي تخيف الشخص المضطرب الاعصاب تأتي على غير رغبة . وكما ان الذاكرة تستطيع ان تستدعي تأثيرات الحواس فكذلك يستطيع التوهم — الذي تحدثت عنهُ في المقال السابق عن طبيعة العبقرية — ان يكوّن صوراً جديدة عليها طابع الخلق وميسم الجدة ، وفي الاشخاص ذوي الخيال القوي الخصب تصبح صور التوهم الخالق معادلة للصور التي تستدعيها الذاكرة في الوضوح والابانة بحيث تدنو من الصور الحسية الواقعية . ولمبروزو نفسه يقول عن المصور مونتينا Montina « كان يتصور انهُ يرى صورة ماثلة امامه قبل ان يشرع في تصويرها ، فاذا وقف بعض الناس بينهُ وبين المكان الذي كان يتمثل فيه الصورة امره ان ينتحي ناحية أخرى ليتمكن من رؤية ما يصوّره » . وقدرة الكثيرين من عظماء الفنانين وبراعتهم في دقة الوصف

مرجعها هذه الصفة الملازمة لهم . والاشخاص ذوو التوهم السّري الخصب لا يستعصى عليهم خلق هذه الصور التي تعجز ذوي التوهم الجديب والذهن العقيم والذين يعيشون في عوالم الافكار المجردة

وقد عرضت لبعض عظماء الرجال حالات من خداع الحواس غير قائمة على الرغبة ، واكثر من ألمت بهم هذه الحالات من المستغرقين في العبادات والافكار الدينيـة مثل الأولياء والقديسين والمصلحين الدينيين . ولوثر يزعم انهُ رأى مرة الشيطان وقذفه بالدواة . وتختلف الآراء في اعتبار أمثال هذه الحالة من حالات المرض ، ففريق من علماء الامراض العقلية لا يراها مرضاً وفريق آخر يراها من علامات اختلال العقل ، والذين يعتبرونها مرضاً يعللون ذلك بخروج هذه الحالة عن المألوف ، ولـكن لو كان الخروج عن المألوف في حد ذاته مرضاً لكانت العبقرية مرضاً لانها في صميمها ضرب من ضروب الشذوذ والخروج عن المألوف

ومن الحقائق المعروفة ان الايحاء قد يكون من البواعث التي تساعد على حدوث خداع الحواس ، فالجبان الرعديد قد يرى في المكان المهجور اذا ما أظلم الليل صوراً وأشباحاً ويخال عزف الريح وحفيف الاشجار ولولةً وعويلاً ، والطفل القوي التوهم الذي فجع في والدته قد يصور له الألم اللاذع صورتها في السماء أو يسمعه صوتها ، وأمثال هذه الظواهر كثيرة وهي متوقفة على قوة التوهم ورقة العواطف . وقد كان لوثر يعتقد بوجود الشيطان ولذا كان خداع الحواس عنده ثمرة من ثمرات هذا الاعتقاد الراسخ . ورؤى القديسين والاولياء لا تجيز لنا ان نرميهم بالجنون فان الرجل الذي وقف حيـاته على الدين واعتقد بصحة مذهبه اعتقـاداً لا يسمو اليه الشك وآمن بوجود الملائكة والشياطين ليس من المستنكر ان يرى في جيشان شعوره وفورة عواطفه رؤى دينية وصوراً قدسية ، ونابليون قبيل الوقعات العظيمة والحوادث الجسيمة كان يرى نجمه صاعداً في السماء . ومسألة ان خداع الحواس دليل اضطراب العقل مستمدة من التجارب ، ولو ان التجارب اظهرت لنا ان خداع الحواس لا يحدث الا في حالات اضطراب العقل لـكان من حقنا ان نجزم باعتبارها علامة مؤكدة من علامات الجنون ، ولـكن الواقع ليس كذلك فان المشاهد ان كثيراً من ذوي العقول الراجحة والبصائر النيرة وكبار الشعراء والفنانين استهدفوا لخداع الحواس

وخداع الحواس الذي يصح اعتباره من علامات الجنون هو الخداع الذي يؤثر على الارادة والوعي ويقلل مسؤولية الانسان عن أعماله

وهناك مشابهة بين قوة التوهم عند الشعراء والفنانين وعلامات الجنون التي تميز فريقاً من المجانين ، فقد لاحظ الباحثون بين العلامات الدالة على الهستريا الميل الى الـكذب وخداع

الغير ، وهذا الكذب لا تبعث عليه المصلحة الشخصية كالرغبة في الافلات من العقوبة وانما هو من خلق التوهم ، وأكثر هؤلاء الأشخاص المصابين بهذا الداء ضعاف العقول ، ولكن قوة التوهم فيهم ناشطة دائبة وهم يخالون ما يصوّره لهم التوهم حقيقة واقعة ، وبعضهم يميل الى غرائب المقارنات وعجائب المفارقات ويتوهم صلات خفية بين الافكار المتباعدة والمشكلات المتناقضة ، ويُكسب ذلك في بعض الأوقات تفكيرَهم لمعة زائفة وقد يحسب الناظر السطحي ورمهم شحماً ويظن هوسهم عبقرية ، وهم لا يكتفون بانكار ما يتهمون به وانما يبتكرون قصة مخالفة للحق ، وبعضهم لا يكتفي بتشويه الحقيقة وانما يضعون مكانها حواشي واضافات لا تمتّ اليها بسبب ، وهم يفعلون ذلك ليثيروا الاعجاب بهم والعناية بأمرهم . وهذا الضرب من التوهم موجود عند الشعراء والفنانين ، ولكنهُ عندهم ثمرة من ثمرات قوة الفكر في حين انه عند مرضى العقول من دواعي الاختلال ، وقد كان جيتي في طفولته يقصّ على أترابه أقاصيص من نسج خياله الخصب ويرويها لهم باعتبارها حوادث حقيقية وكان يعجب من تصديقهم لها

وفي المجانين والعبقريين دافع لا غلاب له ينسيهم المصلحة الشخصية ولكنه عند المجانين يتجه الى توافه الأشياء وبعضهم يجرّ على أهله الشقاء والخراب لتعلقه بفكرة مستحيلة خاطئة واعتقاده بصحتها ولا يثنيه شيء عن متابعتها بعناية واهتمام في حين ان دافع الخلق عند العبقريين هو لبّ لباب أكمل وأرقى ما في النفس الانسانية فهو الذي يبعث العالم النحرير على مصارعة المشكلات الفكرية ويحدو الفنان على خلق الآيات الفنية الرائعة ويغري الفاتح العظيم بطلب السيطرة والاستعلاء لا طمعاً في المال او الجاه وانما لأن حب التغلب والانتصار جزء من طبيعته وعنصر من عناصر وجوده . ويمتاز كبار الفنانين بتنوّع الحالات النفسية وتواليها وكذلك المجانين فهم هدف للتنقل بين الجنة والجحيم والنزوات الطارئة والبدوات المتعاقبة من علامات الامراض العصبية وبخاصة الهستريا ، ولكن المشابهة هنا سطحية خارجية ، لان وفرة الحالات النفسية عند العبقريين دليل الحياة وفرط اليقظة

ومن شيمة عظماء الرجال انهم كلما انتهوا الى غرض من الأغراض وبلغوا غاية من الغايات طمحوا بأبصارهم الى قمة أعلى وغاية أبعد فهم في قلق مستمر وتطلع دائم لا يطمئنون الى حالتهم ولا يرضون عن انفسهم ، والشعور بالسعادة والغبطة من المشاعر المضنون بها على العظماء ومن ثمّ قول ارسطو ان الذين برزوا في الفلسفة والسياسة والشعر كانوا دائماً ميالين الى الاكتئاب . ولكن هذا الحزن يختلف عن الجنون وهو نتيجة محتومة لتركيبهم النفسي ، وأنفس ما في الانسانية هو هذا الشعور بالنقص وعدم الاقتناع بالنفس ونشدان العزاء والسلوان في العمل والخلق الذي يمتاز به العبقريون ، والذي يجعل الحضارة الانسانية مدينة لهم ومحسوبة عليهم

واستغراق الرجل العظيم في تفكيره وذهوله عما حوله قد يظهره في مظهر المجنون الذي لا يعي ما يحيط به، ولكن وراء ذلك التشابه في المظهر الكثير من أوجه الخلاف والتباين فالمجنون يعجز عن إدراك ما حوله لضعف عقله وانحطاط تفكيره وفقدانه القدرة على الالتفات وحصر الفكر. ومن ثمَّ لا يعي ما يحيط بهِ، أما ذهول العلماء والفنانين فسببه فرط قوة الانتباه وشتان بين عقل شارد مخلوع العنان وعقل يستطيع ان يتابع تفكيره ويحصر جهده في ناحية بعينها حتى لا يعي سواها

ومن خصائص العبقريين علاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها، والرجل الذي يشتهر بمواهبه الفائقة ويمتاز من صغره بالسموّ الفكري والعبقرية سرعان ما يجذب حوله طائفة من المعجبين بهِ القادرين لمكانتهِ وكثيراً ما يندسُّ بين هؤلاء المتملقون والأذناب، فاذا كان من ذوي العبقريات المبكرة فانهُ يكون قد تعوَّد الملق والاطراء وألف الاعجاب والإكبار فاذا وُجِّه اليه بعد ذلك نقد فمن الطبيعي ان يتأثر بهِ أكثر من غيره ممن ألفوا النقد وتعوّدوا المراجعة، وربما غالى في ذلك وحسب الناقد عدوّه الشخصي، وقد يمتد غضبه من الناقد الى معاصريه جميعهم، ثم يجيء العالم النفسي السطحي ويضرب هذه الحالة مثلاً لجنون الشعور بالاضطهاد غير ناظر الى الملابسات التي جعلت العبقري يبدو في هذا المظهر الشاذ

والرجل العادي قد تعوّد ان يكبح ميوله ويسيطر على اهوائه التي تعارض المجتمع وتخرج على تقاليده وسننه وألف الملاءمة بين سلوكه وأحوال البيئة حتى لا يبدو شاذاً متنافراً، ولكن الرجل العبقري المشغول بمراقبة دخائل نفسه وصور توهمه قد لا يلتفت الى صغائر الحياة اليومية ولا يعبأ بتفصيلاتها ولذا يبدو على حقيقته. ومن السهل ان تستشف ميوله وتقف على طبيعة أهوائه لأنه لا يحسن فن المداراة والتكتم واخفاء أهوائه وميوله على خلاف الرجل العادي

وقد قيل في تأكيد العلاقة بين الجنون والعبقرية ان كثيراً من العبقريين أصيبوا بالجنون مثل لوكريتس وتاسو ولنياو وسوفت وهلدرلين وموباسان وان بعضهم مات منتحراً مثل لسنج وكلايست ونرفال، ولكن مسألة إلصاق الجنون بالعبقرية لان بعض العبقريين أصيبوا بالجنون أوماتوا منتحرين من المسائل التي لا يبت فيها الاَّ عن طريق التجربة والمشاهدة وسبيل التجربة هنا هو عمل احصائيات دقيقة تبين عدد العبقريين الذين اصيبوا بالجنون وتثبت ان نسبة عدد المجانين في العبقريين اكثر من نسبة عدد المجانين في غيرهم من الناس، ويقتضي ذلك ان تكون هذه الاحصائيات شاملة للعصور القديمة والحديثة ولمختلف الامم وان تراعى فيها الدقة التامة والحيطة الكاملة ويتيسر بعد ذلك أن نبني حكماً صحيحاً خالياً من الغرض وموسوماً بالميسم العلمي

ومجمل القول ان هناك مشابه بين الجنون والعبقرية ولكن هذه المشابهات ليست معناها القرابة، وهي كالمشابهة بين الذهب الابريز والنحاس الأصفر لا تعدو المظهر. والعبقري يفوق عصره ويسبق جيله وكثيراً ما يساء فهمهُ فيقرف بالجنون

الدار الاسلامية

في مصر

— ٢ —

للصاغ عبد الرحمن زكي

دولة المماليك البحرية

شيدت دولة المماليك الأولى القصور العالية التي تنافس الامراء في زخرفها وفرشها بشتى المفروشات مما جعل لجميع الفنون الزخرفية سوقاً رائجة في مصر، فارتفعت الصناعات وخصصت الاسواق للعمل في تلك المصنوعات. وقد أفاض المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور بل وفي مقدار عنايتهم بالشوار الذي كانوا يعدُّونهُ لأولادهم مما يعطينا أحسن فكرة عن مقدار البذخ والترف في ذلك العهد. وأمامنا مخلّفات قصر (قوصون) المعروف الآن بقصر (يشبك) وعند العامة (بردق) الذي يقع الى الجنوب الغربي من مدرسة السلطان حسن. ويطلق على هذا القصر اسم بيت السلطان. وقد شيده الامير (قوصون) ثم ملكه الامير يشبك واخيراً كان من نصيب الامير (اقفردي) الذي تحوَّل اسمهُ الى (بردق) — وعمارة هذا القصر العظيم تحمل طابع القرن الرابع عشر

ولا ننسى قصر (بشتاك) وقصر الامير (بيسري) تجاهه مما أعاد التسمية لهذا الشارع بعد الدولة الفاطمية وبقيت حتى اليوم ويشترك في أسلوبه العماري مع قصر يشبك. وقد بني قصر بشتاك في مكان باب البحر احد أبواب القصر الفاطمي الشرقي. وكان في الاصل لبدر الدين بكتاش الفخري ثم آل الى أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بطريق الشراء الذي انشأه من جديد وذلك سنة ٧٣٥—٧٣٨هـ

وقد احتفظ الجزء المتوسط لقصر بشتاك الى الآن بقسم كبير من وجهته التي تطاول السماء رغم ما لحقهُ من تغيير وتبديل خلال السنين التي مرت عليه والى جانبي هذا الجزء المتوسط العالي المشتمل على قاعة كبيرة ذات اربعة ايوانات. أما الايوانان الجانبيان البحري والقبلي

(١) كتاب وصف مصر — ج ١٥ — ص ٤٥٠ و٤٦٥

فيتكونان من عمد تحمل طارات يعلوها شرفات صغيرة ذات عمد رشيقة . ويلحق بهِ حجرة صغيرة لها سقف منقوش مذهب بهِ اسم بشتاك . وقد عنيت ادارة حفظ الآثار العربية بهذا القصر وبهذه القاعة فأزالت الابنية الحديثة من الوجهة وأنشأت سقفاً جديداً فوق صحنها

ومن البيوت المصممة بنفس الأسلوب المعماري قصر (ألىناق الحسامي) (خير بك) الذي بقي منهُ لليوم قاعة قديمة . ونذكر ايضاً القاعة الكبيرة في قصر الامير (طاز) التي بقيت من ذلك القصر الفسيح والتي ما زالت تحتفظ ببعض الافاريز الملوَّنة والكتابات المنقوشة وآثار بعض الزخارف الهندسية

ولم يبقَ من قصر محمد محب الدين الموقع (٧٥١ هـ) اليوم الاَّ القاعة النادرة التي تعرف اليوم باسم قاعة عثمان كتخدا أحد أصحابها (١)

وفي أحد أحياء القاهرة بيوت أخرى على الطراز المعماري للقرن الرابع عشر منها تلك القاعة القديمة التي تحوَّلت وأصبحت تعرف باسم (تربة الغنامية) . والقاعة الرحبة التي يطلُّ بابها على شارع الأزهر الجديد والتي يطلق عليها اسم قاعة دار (محيي الدين يحيي) وتعرف اليوم باسم مسجد شرف الدين وهناك أيضاً الصالة المجيدة التي نعرفها اليوم باسم مدرسة حوش آدم (او مسجده)

ولا جدال في أن هذه القاعة بقية من بقايا قصر قاهري منيف وهي تشتمل على جزء متوسط يحيط به ايوانان جانبيان ، وهي كاملة الزخرف . وهذه المدرسة تشتمل على مجموعة متباينة في التفاصيل . فالقاعة تحمل تاريخ ١٣٦٧ او ١٣٧٧ والدهليز يحمل اسم طاشتمور (١٣٨٦) والدهليز الثاني عام ١٤٦١ والمأذنة وتجديد بناء الردهة والمدرسة يحملان تاريخ ١٤٨٦ ، وكان هذا الامير من عظماء رجال عهد قايتباي

ومقعد قصر ماماي — (مقعد بيت القاضي) وهو كل ما تبقى من مخلفات قصر عظيم ويعطي لنا صورة واضحة من العمارة المملوكية . وتقارُب عمارة هذا البناء مع مقعد السلطان قايتباي الذي شيده بالقرب من مسجده في القرافة يؤيد التآلف والتناسق لطراز البناء المدني في ذلك العصر

الدور المصرية فى العهد التركى

والآن ننتقل الى الدار في العهد التركي (١٥١٧م)

لدينا في القاهرة ورشيد ودمياط أمثلة عدة من الدور المصرية منذ القرن السادس عشر ومعظمها يحتفظ بطابعه الأصلي وتكاد كلها تتفق في هندستها وان اختلفت في مواد بنائها . وأول

(١) راجع كتاب المؤرخة المعروفة مسز ديفونشير Rambles in Cairo — ويقع هذا البيت بالقرب من بيت القاضي بالجمالية

ما نلاحظه ان الطراز المعماري الذي اتبع لداخل البيوت واحد ، فالباب الخشبي مكوّن من ضلفة واحدة مزخرفة من الخارج بحلية كبيرة على شكل جامة بيضاوية يحيط بها اربع جامات صغيرات موزّعة على الأركان وهي ملوّنة باللون الأحمر وأطرافها الخارجية باللون الأبيض. وكثيراً ما تقابل الجامة الكبرى آية قرآنية أو عبارة منقوشة في وسطها « وهو الحيُّ الباقي »

وهذه النقوش قد تكون سوداء أو بيضاء اللون وكان لأكثر أبواب الدور سماعة حديدية وقفل خشبي. كما توجد في الغالب درجتان من الحجر لامتطاء صهوة الجواد او الحمار وتبعد عنها حلقة حديدية تستخدم في ربط حمار صاحب الدار(١)

ويعلو الباب عقد موتور صنجاته محلاة ومزخرفة تحيط به من أعلاه نقوش عربية. وفوق العقد « منور » من خشب مربع الخرط متوسط المقاس

وبطابق الدور الارضي نوافذ خشبية صغيرة عالية لا تسمح للسائر في الطريق او الممتطي ظهر جواد بمشاهدة مايجري في داخل الدور. أما نوافذ الطابق العلوي فتبرز في الغالب قدماً ونصف وكانت تصنع من خشب الخرط فلا يخترقها سوى القليل من الشمس والنور أو الهواء. وفي كثير من الأحوال لايكون خشب الخرط ملوّناً بل يترك على طبيعة لونه الأسمر — تصفُّ عليها القلل الفخارية اثناء الصيف ، وتعلو المشربية نافذة مستطيلة من خشب الخرط أو الأصابع الخشبية أو الزجاج الملوّن

وتتألف الدار في الغالب من طابقين او ثلاثة. ولكل دور من الدور الكبيرة فناء مربع الشكل (حوش) يصل اليه من الباب الخارجي بواسطة طرقة على شكل كوع ذات لفة أو لفتين وذلك لكي لا تسمح للسائر في الطريق بمشاهدة أهل الدار وهم في الفناء وعلى يمين الطرقة او يسارها توجد « مصطبة » مشيدة في أحد جانبي الطرقة يجلس عليها حارس الدار أو الخدم. وتوجد في الحوش بئر تتوسطه أحياناً أو على جانب منهُ وبقربه الأزيار التي تنقل اليها المياه في قرب الجلد بواسطة السقايين من الخارج لترشيحها وتبريدها لاستعمالها بالمنزل. وتطلُّ الغرف الرئيسية في الدار على هذا الفناء. ويلاحظ وجود عدة أبواب في الحوش تصل بها الى أجزاء الدار منها باب الحريم (مثلاً) وهو المدخل الموصل الى بئر السلم ويؤدي الى سكن ربّ الأسرة والسيدات والأطفال. وهذا الباب يكون دائماً أقرب الى الداخل من الطرقة

وفي الدور الأرضي توجد غرفة يطلق عليها المندرة (المنظرة) يستقبل فيها الزائرون من الرجال ولهذه المنظرة نافذة كبيرة أو نافذتان من الخشب

(١) راجع كتاب المستشرق الانجليزي ادوارد ويليام اين. ص ١ — ١٨ Manners and Customs of the Modern Egyptians

وفي المنظرة يوجد جزء من الارضية ممتد بين الباب والجانب المقبل ينخفض بضع بوصات عن أرضية الطرقة ويطلق على هذا الجزء « درقاعة »

وفي منازل الاغنياء تبلط ارضية « درقاعة » المنظرة بالرخام الابيض والاسود والقطع الصغيرة من البلاط الأحمر اللطيف المنسق التركيب، وفي وسط « الدرقاعة » نافورة (فسقية) تصبُّ ماءها في حوض غير عميق أرضيته من الرخام الملوّن بلون الأرضية المحيطة بها . ويقابل الباب في نهاية الدرقاعة رفٌّ من الرخام او الحجر يبلغ ارتفاعه اربعة أقدام يطلق عليه اسم « الصفّة » تقوم على عقدين أو أكثر وفي بعض الأحيان ترتكز على عقد واحد يوضع تحتها قليل من الأدوات المنزلية كالمبخرة والحوض والأباريق المستعملين للغسيل قبل وجبات الطعام أو بعدها او للوضوء كما توجد بعض الأواني الزجاجية وفناجين القهوة فوق الصفّة. وتكون هذه الصفّة أحياناً مبطنة بالرخام او البلاط على أسلوب النافورة

والاستراد او الجزء المرتفع من ارضية المنظرة يسمى « الديوان » وفي هذا المكان تفرش الحصر والبسط وتوضع المقاعد على الأرض ملاصقة للحائط خلفها الوسائد والطنافس . وكثيراً ما يُرى في داخل جدران هذه الغرفة دولابين أو ثلاثة جميلة الصنع أبوابها من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين وأحياناً تكون مطعمة بالعاج أو الصدف أو الأبنوس . والسقف الذي يغطي الديوان مصنوع من الخشب، ذو ميدات (عروق) محفورة يبعد الواحد عن الآخر قدماً قد تكون ملوّنة او مذهبة . أما جزء السقف الذي يغطي الدرقاعة لبيت أحد الأغنياء فكثيراً ما يكون أكثر زخرفة وابداعاً وتنوُّعاً في الألوان . وفي منتصف السقف يعلّق القنديل النحاسي الجميل

وفي بعض البيوت توجد غرفة أخرى تسمى المقعد تكون على ارتفاع ثمانية او عشرة اقدام (٣ متر) فوق الدور الارضي تستخدم كالمنظرة لها واجهة مكشوفة ذات عقدين او ثلاثة وسياج قليل الارتفاع . كما ان هناك أيضاً مكاناً مربعاً يطلق عليه اسم « التختبوش » له واجهة مفتوحة في منتصفها عامود من الرخام ليحمل البناء الذي يعلوه صفت على جانبيه المقاعد الخشبية الطويلة المتقنة الصناعة والتي يغطيها نوع من الأنسجة الحريرية . وفي اثناء الصيف ترشُّ أرضية فناء (الحوش) بمياه البئر فتكسب البيت نسيماً منعشاً

ومن بين حجرات الدور العلوي في الجزء الخاص بالحريم توجد غرفة يطلق عليها القاعة العلوية وهي قاعة ذات سقف عالٍ على كلا جانبيها ايوانان احدهما أكبر وأنسق من الآخر. وجزء من سقف هذه القاعة الذي يغطي « الدرقاعة » ويقسمها الى ايوانين كما قلنا مرتفع عن الجزئين الآخرين وبه « ممرق شخشيخة » اجنابه مؤلفة من ألواح المشربيات وتعلوها قبة صغيرة وقد لا نجد في هذه « الدرقاعة » نافورة ولكن نجد أرضيتها مبلطة بطراز ارضية المنظرة

وهنا توجد صفة جميلة وبعض الدواليب الأنيقة وعلى جدران هذه القاعة نجد عدة رفوف من الخشب مثبتة على كوابيل مزركشة تحمل عليها بعض الاواني الخزفية وفي الغالب تكون القاعة أجمل غرف البيت وهي صالون الدار الاسلامية — وتقام في هذه القاعة حفلات الاسرة ومجلس الموسيقيات (العوالم) تغنين على الدفوف والعود والقانون والطبلة . ويلاحظ في تخطيط الدار المصرية انه ينقصها النظام الذي يراعى اليوم فالغرف مختلفة العلوّ وأرضياتها ليست في مستوى واحد وعند التنقل يخطو الانسان عدة درجات ، والغرف المتجاورة يفصلها الحمام

بعض الدور الاسلامية فى القاهرة

والآن قبل ان نختم هذا المقال نعرّج على بعض احياء القاهرة القديمة لنأتي على وصف بعض دورها الأثرية التي ما زالت الى اليوم قبلة عشاق الفن الاسلامي ومحبي العمارة القاهرية (١)

بيت جمال الدين الذهبي

بحارة خشقدم سنة ١٠٤٧ هـ — (١٦٣٧م)

أنشأ هذا المنزل الخواجه جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر وهو يكاد يكون باقياً على حالته الاولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على ضد مظهره الداخلي فانه جدير بالاعجاب فعلى حوشه اللطيف يشرف من الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام، ومن الجهة الشرقية تطلّ القاعة الكبرى ذات الليوانين تتوسطها (درقاعة) مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وجدران القاعة مكسوّة أسفلها بوزرة جميلة من الرخام الدقيق وبصدر القاعة مشربية لطيفة مطلة على الشارع تعلوها شبابيك صغيرة من الجص المحلى بقطع من الزجاج الملون ، وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المموّه بالذهب . ومما يلفت النظر في هذا البيت حمّامه الصغير الكامل النظام فضلاً عن السلالم الكثيرة المؤدية الى اجزاء المنزل المختلفة

سراى المسافرخانة بدرب الطبلاوى

سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

أنشأ هذه السراي محمود محرم احد تجار القاهرة . وهي مكوّنة من قسمين احدهما بحري أنشىء سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩م) وتتوصل اليه من درب المسمط . والآخر قبلي أُنشىء سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩م) وتتوصل اليه من درب الطبلاوي الاّ ان القسمين ارتبطا احدهما بالآخر وصارا مبنى واحداً يتوصل اليه الآن من درب الطبلاوي

---

(١) راجع كتاب Edmond Panty; Les palais et les maisons d'epoque Musulmane au Caire

الجزء البحري — يتكون من «دركاه» بها على اليسار باب يؤدي الى القسم القبلي وباب آخر يؤدي الى حوش مكشوف به على اليسار (الشرقي) باب يؤدي الى سلم ثانوي يوصل الى الغرف العلوية ويلي السلم قاعة ذات ايوانين بينهما (درقاعة) مفروشة بالرخام الملوّن . ويلي هذه القاعة باب يؤدي الى القسم القبلي ثم تختبوش سقفه قشر بلدي جميل

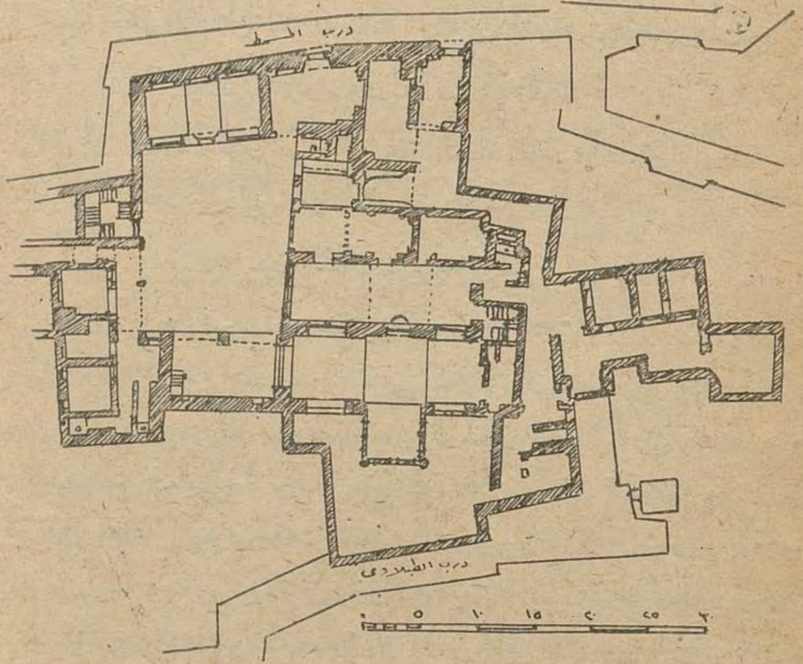

رسم الدور الأرضي بقصر المسافرخانة نقلاً « عن پوتي »

أما على اليمين ففي الجهة البحرية قاعة بسيطة يليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي الى جميع غرف الدور العلوي وأهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق « التختبوش » والمشتملة على مجموعة قيمة من الرخام والنجارة وخصوصاً الشخشيخة . هذا فضلاً عن المشربيات الخرط المحيطة بالحوش

الجزء القبلي — يتوصل من بابه الاخير الى ردهة فسيحة تؤدي الى قاعة بأرضيتها فسقية رخامية دقيقة وجانبها القبلي كله من الخرط والسقف لا يقل فخامة عن سقفي التختبوش والقاعة العليا. ويلاحظ ان هذه هي السراي الاصلية بعد هدم اجزاء منها من الغرب والجنوب بسبب خللها

وبعد وفاة منشئيها آلت الى الاسرة العلوية المحمدية فاتخذتها مقرًّا لضيافة الواردين الى مصر من الكبراء ولذلك عرفت (بالمسافرخانة)

منزل ابراهيم كتخدا السناري

حوالي سنة ١٢٠٩ هـ — (١٧٩٤ م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبة الى مسيو (منج) احد علماء الحملة الفرنسية انشأه ابراهيم كتخدا السناري وَجَـهته بسيطة ليس فيها ما يهمُّ سوى الباب العمومي والمشربية التي تعلوه، وبالجنب القبلي للحوش تختبوش ومقعدٌ بابه مشحون بالزخارف وسلمهُ يؤدي الى بابين : الايمن منهما يوصل الى بعض حجر المنزل ثم الى القـاعة الـكبيرة والحمّـام ، والباب الايسر يؤدي الى المقعد والجناح الشرقي . وتنحصر مكانة المنزل في ان الحملة الفرنسية اثناء اقامتها بمصر سنة ١٢١٣—١٢١٦ هـ (١٧٩٨—١٨٠١ م) خصصتهُ لإقامة مصوّريها وبعض علمائها ومنهم ريجو الرسام المشهور وماللوس ولاتكريه وتبراج وجالوى . وفيه عملت الابحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر) وفي المدة من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٢٦ أقام به جلياردو بك متحفاً باسم (بونابرت) أُغلق بعد وفاته ثم أُخلي من السكن سنة ١٩٣٣ (١)

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى

الشهير ببيت « السحيمي » — بالدرب الأصفر ١٠٥٨—١٢١١ هـ (١٦٤٨—١٧٩٦ م)

هذا المنزل مكوَّن من قسمين . احدهما : وهو الجزء القبلي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ — هـ (١٦٤٨م) وأهم مشتملاته القاعة الـكائنة على يمين الداخل ثم القاعة الـكائنة المشتملة على مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط الدقيقة الصنع

أما القسم الآخر وهو البحري فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل چلبي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦م) وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما منزلاً واحداً

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول فهو يشتمل أولاً على قاعة بحرية كبيرة تعلوها حجرة مثلها ولـكل منهما وجهة بحرية من الخشب الخرط الجميل مشرفة على الحديقة الـكبرى ويقابل هذه القاعة قاعة اخرى غربية تتوسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعدُّ من أدقّ وأجمل ما صنع من نوعها . ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان الى الدور العلوي المشتمل ضمناً على قاعة راكبة على التختبوش هي أفخم وأجمل حجرات المنزل جدرانها مكسوّة بالقاشاني المنوع وبصدرى ايوانها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من أعلاها بخورنقات تعلوها رفوف وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأواني القاشاني وبالحجرة باب مطعم بالسن والزردشان من صناعة القرن العاشر الهجري . ووجهتها القبلية من الخشب الخرط الجميل

---

(١) راجع كتاب « في مصر الاسلامية » الذي طبعه المقتطف سنة ١٩٣٧ — مقال الاستاذ محمود أحمد باشا عن تاريخ العمارة الاسلامية بمصر

قصر محمد علي باشا بشبرا

وفي عام (١٢٢٣هـ — ١٨٠٨م) أمر المغفور له محمد علي باشا بإنشاء قصر خلوي في وسط بستان كبير في شبرا ، وقد بقي الى اليوم ، ويعرف بكشك الفسقية . وهو بناء مستطيل مسطحه ١٣٥٣٠ متراً تتوسطه بركة ماء كبيرة من الرخام في وسطها مجلس مستدير على هيئة جزيرة أحيط بسياج من الرخام وحمل على تماثيل من التماسيح ، وكان الوصول اليه بزورق مذهب ، وفي الأركان الأربعة لحافة البركة أسودٌ رابضة تخرج المياه من أفواهها . وفي المثلثات التي ربضت عليها حفرت أنواع الأسماك بحركاتها وهي تسبح في الماء

ويحيط بالبركة عمد من الرخام تحمل السقف الحافل بالنقوش وبين هذه العمد سياج من الرخام المزخرف يحمل اصصاً رخامية بها زهور

وفي النواصي الأربع حجرات كبيرة احداها الشرقية القبلية المعروفة « بصالة الجوز » فرشت أرضياتها بخشب الجوز القيم وكسيت جدرانها بوزرة منه بها زخارف دقيقة ويعلو الوزرة طراز مزخرف ثم السقف الحافلُ بكثير من النقوش تتوسطه ثرية كبيرة كونت زخارفها من طيور ناشرة أجنحتها . وقد بقي في هذه الحجرة بعض أثاثها المنسجم مع طرزها . والحجرة الثانية في الركن الشرقي البحري وسقفها منقوش نقشاً عربيّاً ، وقد كتب في وسطه (محمد علي باشا — ابراهيم باشا) وكتب حولها (طوسون باشا — اسماعيل باشا — عبد الحليم بك — حسين بك — سعيد باشا) . والحجرة الغربية البحرية خاصة بالبليارد تتوسطها طاولة كبيرة كفتت بزخارف مذهبة

الخلاصة

وما زال في القاهرة عدد كبير من بقايا البيوت الأثرية ولاسيما ما كان يطلُّ منها على الخليج قبل ردمه منذ نيف وأربعين عاماً . وقد أوردها المهندس الأثري المسيو ادمون بوتي في كتابه النفيس « قصور وبيوت القاهرة في العصر الاسلامي » الذي طبعه عام ١٩٣٣ . وفي هذا الكتاب استطاع المؤلف ان يصف حوالي ثلاثاً وستين دوراً موزّعة بين أحياء القاهرة القديمة : القاهرة البحرية التي تشتمل اليوم على حيّ الحسينية . ومن هذه الدور بيت البكري بالخرنفش وهو من طراز تركي شيد في عصر الوالي عباس الأول (١٨٤٨) . وبيت السلحدار . والقاهرة المركزية (الدرب الأحمر) والقاهرة القبلية (حي الخليفة والسيدة زينب) — وحي القلعة . ومصر القديمة — والقرافة الشرقية . . . الخ

ومن حسن حظ محبي الآثار الاسلامية ان تكون هذه البيوت الجميلة موضع عناية ادارة حفظ الآثار العربية ، وهي محطُّ عطفها وتقديرها

كيف يصل الماء

الى رؤوس الاشجار الكبار

تجارب جديدة بجذور مفصولة عن نباتها

تتناول جذور النبات غذاءها من مصادر مختلفة . فمن التراب تتناول الماء والأملاح ، ومن ورق النبات السكر وغيره . فاذا فصلت جذراً عن نباته بقي في وسعه ان يتناول الماء والأملاح من التراب ، ولكنهُ يغدو عاجزاً عن أخذ السكر من الورق . فاذا غذيت الجذر بألوان الغذاء التي كان يتناولها من الورق والتراب مضى الجذر في نموّه ، على نحو ما فعل الدكتور كارل بعضل القلب من فرخ الدجاج . وقد عُني الدكتور فيليب هوايت أحد علماء معهد روكفلر بهذا النوع من البحث النباتي مدى العشر السنوات الأخيرة فخرج منهُ بحقائق شتى طريفة

كان علماء النبات يعرفون شتى الأملاح التي يحتاج اليها النبات عندما بدأ هوايت بحثهُ . وكانوا يعرفون كذلك ان في نسيج النبات سكراً ، إما سكر قصبٍ وإما جلوكوزاً . إلاّ ان غير واحدٍ من الباحثين جرب صنع سائل مغذٍ لجذور النبات باذابة الأملاح والسكر جميعاً في ذلك السائل فأبت الجذور ان تنمو فيهِ ، وإذن فالجذور تتناول من الورق شيئاً او أشياء غير السكر على أصنافهِ ، فقال بعضهم إنها « أتوار » النبات ولكنهم كانوا يقولون هذا جزراً لا بناء على تجربة وتحقيق ، ولم يعرف الجواب الاّ بعد بحث طويل وتجريب دقيق

بدأ الدكتور رُبنز Robbins الأميركي تجربته باضافة قليل من الخميرة الى السائل المغذي المستعمل في تغذية جذور محفوظة في أنابيب الاختبار . والخميرة من المواد التي تحتوي على يسيرٍ من كل مادة مغذية . وحوالي ذلك الوقت (سنة ١٩٢٢) أضاف الدكتور كوت Kotte الألماني الى السائل المغذي قليلاً من خلاصة لحم البقر ، فكان من أثر زيادة هاتين المادتين في الحالين ان طال عمرُ الجذور قليلاً ولكنها كانت في الحالين تعجز عن المضي في النموّ بعد ذلك

وأقبل الدكتور هوايت على البحث نفسهِ في سنة ١٩٢٩ ومضى يبدّل ويعدّل في عناصر السائل المغذي مضيفاً اليهِ وحاذفاً منهُ ، قليلاً من الفوصفات أو الحديد او غيرهما . ولكنهُ مع ذلك داوم على استعمال خميرة الدكتور رُبنز الى ان وفق الى مزيج تعيش فيهِ الجذور وتنمو . وكان قدّ انقضى عليها خمس سنوات وهي نامية في أنابيب اختبارهِ عند ما كتب هذا الكلام من عهد غير بعيد ، ومن أغرب ما رواهُ ان بعضها زاد طولهُ بوصتين في يومٍ واحد

وتركيب سائلهِ المغذي ليس ثابتاً لا يصيبهُ التغيير ، فالخميرة فيهِ لا تزيد على جزء من عشرة آلاف جزء من الماء ، وقد يضيف اليهِ قليلاً من خلاصة لحم البقر او يسيراً من « فبرين » الدم ، او البيرا . ولكن الخميرة أفضل مصدر لكل ما تحتاج اليهِ الجذور عدا أصناف السكر والملح

ومما استوقف نظر الدكتور هوايت ان الجذور المفصولة عن نباتها تبدو كأنها تحتاج الى نفس عناصر الطعام التي نحتاج اليها نحن . إلاَّ أن هذا الخاطر لم يمنعهُ عن البحث بحثاً دقيقاً غرضهُ معرفة عناصر الطعام أو الحياة التي تستمدُّها الجذور من الخميرة . وهذا البحث استغرق ثلاث سنوات في مختبر الكيمياء الحيوية . فوجد ما أيَّد خاطرهُ المتقدم الذكر اي وجد أدلة على شدة الشبه بين ما يحتاج اليهِ النبات وما نحتاج اليهِ نحن من عناصر الغذاء . ذلك بان البحث مدى ثلاث سنوات في الخميرة أسفر عن انها تمدُّ الجذور بثلاث طوائف من عناصر الغذاء ، اولاً — الاحماض الامينية وهي التي لا نستغني عنها او نصيبها في اللحم المشويّ مثلاً . ثانياً — ڤيتامين B الذي نصيبه في النبات الاخضر وغيره . ثالثاً — اليود الذي نتناوله في الملح الذي أدخل في تركيبهِ قليل من اليود أو من هواء البحر أو ما اشبه . فاذا غذيت جذور الطماطم المفصولة عن نبات الطماطم والمحفوظة في أنابيب الاختبار ، بالسكر والبروتين والڤيتامين والأملاح اللازمة نمت كما لو أدخلت في سائلها المغذي مقداراً من الخميرة . واذا كنا في حاجةٍ الى دليل اضافي على ان اوراق النبات تركب البروتين والڤيتامين فهذه التجربة بالجذور وتحليل الخميرة هي هذا الدليل

ونمو الجذور في أنابيب الاختبار يختلف عن نموّ قطعة من عضل قلب الفرخ (تجربة الدكتور كارل) فعضل قلب الفرخ ينمو منتشراً في السائل المغذّي لا شكلَ له ولا قوام . فلا يتحوَّل قلباً سويًّا . ولكن قطع الجذور تنمو جذوراً سوية فيها جميع مقوّمات الجذور ومنها الخيوط أو العروق الممتدة فيها من تحت الى فوق ، وهي الأداة التي تعتمد عليها الجذور السوية في نقل الاملاح والماء الى جذع الشجر فالى الاغصان والورق

وأراد الدكتور هوايت ان يعلم سبب نموّ هذه الخيوط او العروق في الجذور التي في انابيب الاختبار . ولا يخفى إن من أقدم المسائل التي حيَّرت ألباب العلماء مسألة ارتفاع الماء من جذور الأشجار الى ذرى الأغصان . فالماء بحسب ما عليهِ العلم والاختبار علينا لا يرتفع إلاَّ بتأثير الضغط او الامتصاص . فما القوة التي ترفعهُ من الجذور الى ذروة شجرة علوها مائة قدم أو مائتان أو ثلاثمائة قدم . هذه مسألة في علم النبات لم يجب العلماء عنها جواباً شافياً

ولكن من نحو قرنين من الزمان كان في انكلترا قسيس عالم يُدعى اسطيفان هايلز Stephen Hales وهو اول من قاس ضغط الدم في الحيوان ثم عكف على دراسة النبات فتوصل الى القول بأن في النبات ضغطاً كذلك « هو ضغط عصير النبات » Sap Pressure وان الجذور تفعل فعل المضخات فتدفع العصير في عروق النبات داخل الجذع والاغصان ، وبهذا

الأسلوب يرتفع الماء الذي تمتصهُ الجذور من الأرض الى ذرى الاشجار الكبار

وظل رأيهُ مقبولاً مدى قرنٍ وربع قرن من الزمان . ولكن فريقاً من الباحثين لم يقتنع بهِ ذاهباً الى انه لا يحتمل ان تستطيع الجذورُ توليد ضغط يستطيع ان يدفع الماء في الشجر أكثر من خمسين قدماً . واعترض غيرهم اعتراضات أخرى عليهِ فانصرف العلماء عنهُ من نحو خمس وسبعين سنة بغير ان يقترحوا رأياً مقنعاً آخر لتفسير ارتفاع الماء في جذور الشجر وجذوعهِ الى أغصانه وورقه

ولكن الدكتور هوايت قال في ذات نفسه عند ما رأى الخيوط أو العروق في الجذور التي في أنابيب الاختبار : — حيثما تكون المضخات يحتمل ان نجد أنابيب . وحيثما تكون الأنابيب يحتمل وجود المضخات . فلما تبين ان هذه العروق هي في منزلة الأنابيب قال في ذات نفسه كذلك : — لعلَّ القسيس هايل مصيب في ما ذهب اليه . ولعلَّ هذه الجذور تفعل فعل المضخات وما هذه العروق الاَّ الأنابيب التي ينقل فيها الماء بفعل الضغط المتولد في المضخات

ومن ثمة صنع الدكتور هوايت جهازاً لقياس هذا الضغط ، فوضع أنابيب من الزجاج على الطرف الأعلى لعروق الجذور فما لبث حتى رأى الأنابيب تفيض ماء من طرفها الأعلى . أي ان الماء المرتفع في عروق الجذور أو أنابيبها بفعل الضغط الحيوي الذي تولده الجذور دخل أنابيب الزجاج وارتفع فيها حتى فاض من طرفها الأعلى

كانت أنابيب الزجاج الأولى التي استعملها الدكتور هوايت لا تزيد على بضع بوصات طولاً فمضى في تجربتهِ وهو يزيد الأنابيب المستعملة طولاً رويداً رويداً حتى بلغ ارتفاعها سبع اقدام ومع ذلك مضى الماء من عروق الجذور يرتفع فيها ثم يفيض من طرفها الأعلى . ثم تحول من زيادة طول الأنابيب الى استعمال الزئبق لقياس مقدار الضغط المتولد في الجذور على نحو ما هو مستعمل في « البارومتر » البسيط . ولكنه وجد ان الزئبق لا يكفي لذلك لأن الضغط عليهِ بلغ مبلغاً عظيماً يساوي رفع الماء في انبوب الى مستوى ثمانين قدماً . فعدل عنه الى الهواء المضغوط . فلما بلغ الضغط على عروق الجذور ما يعدل تسعين رطلاً (pound) على البوصة المربعة وجد الدكتور هوايت ان هذا الضغط لا يؤثر في خفض فعل الجذور الدافع بالماء الى فوق . فكأن القوة التي تولّدها الجذور لدفع الماء اكبر من ضغط ٩٠ رطلاً على بوصة مربعة . وهذه القوة الضاغطة او الدافعة تكفي لرفع الماء الى علو ٢٠٠ قدم . وفي هذا عود الى رأي هايلز .

ما هو الحد الأعلى لهذه القوة ؟ عندما كتب الدكتور هوايت بحثهُ في هذا الموضوع من نحو سنتين كان لا يعلم ، لأن جهاز الهواء المضغوط الذي صنعهُ لقياس هذا الضغط في الجذور كان لا يصلح لقياس ضغط يفوق « ٩٠ رطلاً على البوصة المربعة » . وقد اعترف في آخر بحثهِ بأنهُ ماضٍ ما فتيء عاكفاً على صنع جهازٍ آخر يصلح لهذا الغرض

المهندس المساح المصري

في عهد مصر القديم والحديث

للمهندس حسن محمد

قد يكون من الوفاء ونحن في هذا المقام حيث نتحدث عن الهندسة وشئونها ان لا نغفل ما كان للمهندس المسّاح المصري من أثر في عالم المساحة فلقد أجاد وأثمر وكان له فضل السبق في نواحٍ شتى ما فتئت موضع المفاضلة والتقدير . وكما تنطق الأهرام بما تنطق فقد أثبت المؤرخ اليوناني «هيرودوت» ان ملك مصر «سيزوستريس» قسّم أراضي القطر المصري تقسيمات منظمة وتولّى توزيعها على الرعيّة، كلٍ بنصيب نظير جباية الأموال السنوية المستحقة عليها. ولقد كان هذا التقسيم بطبيعة الأمر موكولاً الى المهندس المسّاح المصري الذي سبق غيره في استخراج مساحة الأشكال الهندسية. وقد ثبت من ورقة البردي المسماة Rhind Mathematical Papyrus طريقة عمل مساحة المثلث والاشكال الرباعية وهي بعينها الطريقة التي يستعملها مسّاحو المديريات الحاليون الى وقتنا هذا . وهذه الطريقة مؤسسة على القانون الآتي :—

$\text{س} = \left(\frac{\text{ا} + \text{ب}}{٢}\right)\left(\frac{\text{ج} + \text{د}}{٢}\right)$ أي ان مساحة الشكل الرباعي — اي المثلث المقطوع حسب اصطلاح المهندس المساح المصري الاول تساوي حاصل ضرب نصف مجموع كل ضلعين متناظرين في بعضهما ومساحة المثلث مفروض فيها ان طول الضلع الرابع يساوي صفراً

وقد ورد في ورقة البردي هذه جملة مسائل لعمل مسطحات المثلث نذكر منها على سبيل التفكهة هنا مثلين نقلاً عن ورقة البردي السالفة

١ — مثلث ارتفاعه ١٠ خت (الخت = ١٠٠ ذراع قديم والذراع = ٠ر٥٢٣ متر) وقاعدته طولها ٤ خت فما هي مساحته ؟

الحل = نأخذ نصف الأربعة أي $\frac{٤}{٢}$ = ٢ ونضربها في ١٠ بحسب طريقة المساح = ٢٠ خت مربع وبالذراع

١ — ٤٠٠ ذراع   ١٠٠٠ ذراع

$\frac{١}{٢}$ ٢٠٠ ذراع

المساحة تساوي ٢٠٠ في ١٠٠٠ = ٢٠٠٠٠٠ ذراع مربع

٢ — مثلث ناقص أي مقطوع الذنب (شكل منحرف) ارتفاعه ٢٠ خت وطول قاعدته

٦ خت وطول القطع ٤ خت فما هي مساحته ؟

هنا نضيف ٦ زائد ٤ = ١٠ ÷ ٢ = ٥ ولاستخراج مساحة المستطيل الكافي نضرب ٢٠ في ٥ = ١٠٠ خت مربع والعمل هكذا حسب طريقته

١	١٠٠٠ ذراع	١	٢٠٠٠ ذراع
½	٥٠٠ ذراع	٢	٤٠٠٠ ذراع
		½	٢٠٠٠ ذراع

٥٠٠ في ٢٠٠٠ = ١٠٠٠٠٠٠ ذراع مربع

ويلاحظ ان المسّاح المصري الاول كان يقسم الشكل الى مثلثات إما قائمة الزاوية وإما متساوية الساقين ، والشكل الرباعي كان إما مربعاً وإما مستطيلاً وإما شبه منحرف ويسميه مثلثاً مقطوع الذيل ، وكان الذراع وحدة المقياس وقتذاك حيث تبين من تحقيق العلاّمة جريفث أن طوله يساوي ٥٢٣ر٠ متر ، وهذا يتفق مع طول الذراع النيليّة تقريباً . واستعمل في قياسه الكويت وهو الذراع . وكان إما من الخشب وإما من الحجر ومقسماً الى سبعة اقسام ، وكان قسمهُ الاخير أو القسمان الاخيران كل منهما مقسماً الى اربعة اقسام متساوية كما ميّز منتصفه بعلامة خاصة

وكان يستعمل في قياس الطوال وعروض واعماق المباني واستعمل في قياس الاراضي الخت وهو حبل طوله ١٠٠ ذراع وسمّي بالحبل الملكي

طريقة مقاس أبعاد الغيطان بالحبل الملكي
صورة مأخوذة من مقبرة امنحتب بمدينة طيبة .

شكل نمرة ٢ يبين طريقة القياس بالحبل المذكور

ثم استعمل القصبة لقياس الاطوال واعتبر الفدان وحدة المساحة الغيطية

ولقد توارث المساحون المصريون المتأخرون هذه الطريقة وظلوا الى الآن يستعملونها وان كانوا لم يراعوا في تقسيمهم المناطق المراد مسحها الى أشكال منتظمة كما كان يعمل المهندس المسّاح المصري الأول ، الأمر الذي ترتب عليه وجود فرق بين المساحة الهندسية الصحيحة

والمساحة القديمة يتفاوت بين ٣ و ٥ ٪ بالزيادة أو النقصان تبعاً لدقة المسّاح

ويتضح مما تقدم أن مسّاح مصر القديم أوجد مساحة الأشكال الرباعية والثلاثية وأوجد وحدة للمقاييس الطولية وهو الذراع،وهو البادىء في ايجاد آلة القياس وهي الحبل الذي طوله يساوي خت = ١٠٠ ذراع كما أوجد وحدة للمساحة الغيطية وهو الستات ويساوي ١٠٠٠٠ ذراع مربع والذين خلفوه استعملوا القصبة في قياس الأطوال واعتبروا الفدان وحدة المساحة الغيطية. وقد قسّم الوحدة الطولية أو المساحية الى ٢٤ قسماً وسمّي كل قسم قيراطاً، وقسّم القيراط الى أجزاء ورمز لكل جزء برمز مخصوص. ويتداول استعمالها للآن وهي مشهورة بين المساحين بالكسور القيراطية بالنسبة للقيراط وبصورة الفدان لكسور الفدان . وهذه الرموز هي جزء من عملية الاختزال المستعملة الآن . والى القارىء شكل هذه الرموز وما تدل عليه

جدول يبين رموز كسور القيراط وقيمتها

سهم	الرمز	اسم الرمز	سهم	الرمز	اسم الرمز
٤	ىه	دانق	١٦	حـ	حبتان
٨	ح	حبه	٢٠	لمه	نصف قيراط وحبه
١٢	لم	نصف قيراط	٢٤	قم	قيراط واحد

جدول يبين رموز كسور الفدان وقيمتها

قيراط	الرمز	اسم الرمز	قيراط	الرمز	اسم الرمز
١	قم	قيراط	١٣	✓///و	ربع وسدس وثمن
١½	سم	قيراط ونصف قيراط	١٤	ع	ثلث وربع
١ ٣/٢٠	بمه	قيراط وعشرون سهم	١٥	سو	نصف وثمن
٢	مو	قيراطين	١٦	ى	ثلثاى
٣	و	ثمن فدان	١٧	عو	ثلث وربع وثمن
٤	///	سدس فدان	١٨	سع	نصف وربع
٥	مهو	خمسة قراريط	١٩	ىو	ثلثاى وثمن
٦	✓	ربع فدان	٢٠	سر	نصف وثلث
٧	///و	سدس وثمن فدان	٢١	سعو	نصف وربع وثمن
٨	لو	ثلث فدان	٢٢	سع	ثلثاى وربع
٩	✓و	ربع وثمن	٢٣	سرو	نصف وثلث وثمن
١٠	✓///	ربع وسدس	٢٤	اف	فدان
١١	لوو	ثلث وثمن			
١٢	س	نصف فدان			

وطريقة المساحة السابقة الذكر تباشر في الحقل بوساطة المسّاح واثنين من القصابة. والأول يدوّن في أوراقه التي تسمى (قواصير) جميع الأبعاد التي يقيسها الآخران بطريقة بسيطة تتفق مع الشكل الذي يقيسه ان كان رباعيًا أو ثلاثيًا. ومتى تمت عملية القياس يبدأ في ايجاد المسطح بالتطبيق للقانون السابق. واليك مثلاً من هذا العمل

الحمد لله

دفتر مبارك ان شاء الله تعالى الكريم يتضمن علم مساحة الأطيان بناحية سوهاج بمديرية جرجا بمعرفة علي أفندي الدرويش معاون المديرية قلمية حنا نخله المساح من طما وأقلاديوس نخله من الناحية وسعيد بشاي من سوهاج قصابية مبارك بطرس وحبشي عبد الملاك من ناحية صدفا دلالة ايوب الخولي من سوهاج سنة ١٢٧٦

قبالـــــــــــــــــــــــة

عنـد بحري الطريق

١	٢	٣	٤
أحمد باشا راشد أنعام ٣٩ — ٦٣ ٤١ — ٦١ ٤٠ — ٦٢	ابراهيم خلع ٥ — ٦٣ ٠٠ — ٦٣ ٦٣	أحمد العارف ومحمد العارف ٢٠ — ٦٥ ٢٧ — ٦٣ ٢٢ — ٦٤	المذكورين قبله ٣٥ — ٢٢ ٣٤ — ٢٢ ٢٤ — ٢٤
٢٤٩٠ فدن ٧ بور ترعه مسجد ضمن الانعام بقية فدن ٨ ٤١ — ٦٥ ١١ ٠٠ ٩ ٤١ ٤٠٣ فدن ١	فدن ٣٣٤ ١ بور ترعه مسجد بقية فدن ٥ ١١ ٠٠ ٠٠ ٥٨ فدن	١٥٤٤ فدن ٤ بور ترعه مسجد بقية فدن ١١ ٢٠ — ٣ ٠٠ ٠٠ ٢٢٣	٨٥٧ فدن ٤ و ٢ بور ترعه بقية فدن ١١ ٣٥ — ١ ٠٠ ٠٠ ٣٨٥ فدن و ١

ومن هذا المثل نرى ان المساحين كانوا يبينون أنواع الأرض المقيسة إن كانت بوراً أو مزروعة ويسمون الأخيرة بالمعمور ، وقد رأيناهم كذلك عند عمل المساحة إما ان يثبتوا أبعاد مساحة البور ومسطحه ويذكروا باقي التكليف تحت كلمة (بقيته) وإما يبينوا مساحة المعمور وأبعادها ويذكروا البور تحت كلمة (تالف)

وفي عهد من العهود سمي السنات بالأرور وهو يعادل ٢٨ آراً (الآر يساوي ١٠٠ متر مربع) ويساوي الأرور ١٨ر١٥ س ط وهو مربع طول ضلعه ١٠٠ ذراع

وعند عمل مساحة أي بلد كان يقوم بهذا العمل عدد كبير من الكتبة والمساحين وكانوا يقيدون كل تغيير يطرأ في سجلات الحكومة . وكان يقام عند حدود كل عقار خط من القوائم يكتب عليه في أغلب الأوقات اسم المالك الأخير وتاريخ آخر تحديد عمله . ومتى تمّ كل ذلك يطلق على العقار اسم علم ، وكان هذا الاسم يتمُّ إما على طبيعة الأرض وموقعها أو احد العوارض الطبيعية التي تميزها مثل بحيرة الجنوب أو المرج الشرقي او الجزيرة الخضراء أو بركة الصيادين أو غابة الصفصاف ، وهذه الأسماء تبقى علماً على مسمياتها اجمالاً فلا البيع ولا القسمة ولا التوارث ولا تغيُّر الأسر المالكة تستطيع ان تصير هذه الأسماء نسياً منسيًّا ، وهذا يدل على ان المهندس المساح المصري أنشأ السجلات العقارية (المكلفات) وراعى في عمله عدم وجود منازعات بين الجيران بوضعه القوائم الحاملة لاسم المالك وتاريخ آخر تحديد وتسمية العقار أو تسمية المنطقة التي بها . ولم نصل الآن في اعمال المساحة الحديثة لهذه الدقة ولذا كثرت قضايا الحدود

***

وفي عهد ساكن الجنان محمد علي باشا والي مصر عمل تاريع للقطر المصري وقام به المساحون المصريون تحت ادارة المعلم غالي واتبعوا الطريقة السابقة وأُسست مساحتهم على القصبة التي حلّت محل الذراع في عهد حكم العرب لمصر وقد كان طول القصبة يختلف بين ٣ر٤٥ متر و٣ر٨٥ متر

وقد أثبت العلامة جومار أن طول القصبة وقت دخول الفرنسيين كان ٣ر٨٥ متر وان الفدان كان مربعاً طول ضلعه ٢٠ قصبة ومساحته ٤٠٠ قصبة مربعة

وطول هذه القصبة يعادل ١/٦٠ من طول قاعدة الهرم الكبير ، أما طول الذراع البلدي فقيل انه ١/٤٠٠ من طول القاعدة المذكورة أي ٠ر٥٧٥ متر ، أما الذراع القديم فقد قرَّر العلاَّمة المذكور أن طوله يساوي ٠ر٤٦٢ متر ، وقال إنه الذراع الذي كان معتبراً وحدة للمقاييس وقت إنشاء الهرم المذكور ويعادل ٤/٥ الذراع البلدي اي ان النسبة بين الذراعين هي بعينها النسبة بين ارتفاع الهرم وقاعدته ، كما قرر أن العرب عيَّنوا بالضبط طول الذراع العتيق وطول الذراع البلدي . أما وحدة السطوح فقد قرَّر أنها كانت الارور بعد عصر سبقي الأول وهي عبارة عن قطعة ارض طول ضلعها ١٠٠ ذراع ومساحتها ١٠٠٠٠ ذراع مربع

وأطلق العرب على الارور اسم جريب مساحتها ١٠٠ قصبة مربعة او ١٠٠٠٠ ذراع قديم مربع والقصبة هنا كانت القصبة الكبرى وكانت مقسمة الى ثلاثة اقسام كل قسم منها ٥

المهندس المصري المساح يحتضن الحبل الملكي (الحت)

أقدام وتسمى بالخطوة المساحية وطول ضلع الارور ٣٠ خطوة ومساحته ٩٠٠ خطوة مربعة . والخطوة المساحية كانت نصف القصبة القديمة التي طولها ١٠ اقدام وكانت أصغر من القصبة التي يقاس بها الفدان بقدر ربعها بمعنى ان القصبة التي وجدت وقت دخول الفرنسيين عبارة عن قصبة وربع قصبة صغيرة

ومما يلاحظ ان نسبة القصبة الصغيرة للذراع القديم موافقة لنسبة القصبة الكبيرة للذراع البلدي فالقصبة الصغيرة تساوي ٦ $\frac{٢}{٣}$ ذراع قديم كما ان القصبة الكبيرة تساوي ٦ $\frac{٢}{٣}$ ذراع بلدي

وأذكر بهذه المناسبة ان القصبة تساوي ٦ أذرع هاشمية وهذا الذراع يساوي قدمين مصريين = ١ $\frac{١}{٣}$ ذراع عتيق = ٠ر٦١٦ متر ويساوي ١ $\frac{١}{١٥}$ ذراع بلدي اي ٠ر٥٧٥ زائد ٠ر٠٣٨٣ = ٠ر٦١٣ متر والقصبة تساوي ٦ أذرع هاشمية = ٣ر٦٩٦ متر حسب أقوال المقريزي وتساوي ٨ أذرع صغيرة اي ٠ر٤٦٢ في ٨ = ٣ر٦٩٦ متر = ٧ $\frac{١}{٩}$ ذراع سوادي = ٠ر٥١٩٦ في ٧ر١١ = ٣ر٦٩٦ متر وهذه المقادير مطابقة للاعداد ٣٢و٢٤ و٢٧

أما الذراع المعماري فيساوي ذراعاً عتيقاً زائداً قدماً مصرية = ٠ر٤٦٢ زائد ٠ر٣٠٨ = ٠ر٧٧ متر = ٢ $\frac{١}{٢}$ قدم مصرية = ١ $\frac{١}{٣}$ ذراع بلدي اي ان الذراع البلدي تساوي $\frac{٣}{٤}$ الذراع المعماري

وقد كانت القصبة تساوي ٥ أذرع معمارية أي ٣ر٨٥ متر وقت الفرنسيين والفدان عبارة عن ٢٠ في ٢٠ = ٤٠٠ قصبة مربعة = ١٠٠ في ١٠٠ = ١٠٠٠٠ ذراع معماري مربع

وطول ضلع الهرم = ٣٠٠ ذراع معماري فتكون القصبة الكبيرة = ٣ر٨٥ متر فتكون القصبة الهاشمية = ٣ر٤٩ متر اي ان الأولى أكبر من الثانية بمقدار $\frac{١}{٢٤}$

واستلفت النظر هنا الى ان طول القصبة من ايام الفرنسيين كان متغيراً بجهات القطر المصري وقد وُجد منها ما طوله ٣ر٦ متر و٣ر٦٥ متر. والمتعارف بين الناس ان طولها بالذراع البلدي ٦ $\frac{٢}{٣}$ ذراع وكانت هي المستعملة في المساحة

اما قصبة المساحين الصغيرة وطولها ٣ر٦ متر فتساوي ٦ $\frac{٢}{٣}$ ذراع مقياس النيل الحقيقي وقد استعاض المسّاحون القبط عن الذراع البلدي بهذا الذراع ونتج عن هذا زيادة في الافدنة بدون تغيير في عدد القصبات ، فالفدان مساحته بالقصبة التي طولها ٥ أذرع معمارية ٤٠٠ قصبة

ونعود هنا لأقوال العلامة جومار حيث قرّر أن مساحة قاعدة الهرم ٩ أفدنة بالضبط وطول ضلعه ١٠٠ ذراع كبير معماري وطول ضلع الجريب ١٥٠ قدماً فالنسبة بينهما كنسبة ٩ الى ٢٥ فالتسعة افدنة تساوي ٢٥ جريباً . وعلى هذا لو قسمنا ضلعين من اضلاع قاعدة الهرم كل واحد الى ثلاثة أقسام وأقمنا من نقط التقاسيم أعمدة لنتج ٩ مربعات كل منها يساوي فداناً قديماً ، ولو قسمنا كلاً منها الى خمسة اقسام وأقمنا الاعمدة لوجدنا ٢٥ مربعاً كل منها يساوي جريباً

وعلى ذلك يكون الهرم مشتملاً على الوحدة الزراعية التي هي أساس المساحة

اما طول القصبة في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا والي مصر فكان متغيراً في جميع المديريات وتحدد بمقدار ٣٫٦٤ متر كما ذكر منجين ولكن مساحة الفدان تحددت بأمر الوالي بمقدار ٣٣٣ ١/٣ قصبة مربعة

ذكرنا سابقاً ان مساحة الفدان الاصلي كانت ٤٠٠ قصبة مربعة طولها ٣٫٨٥ متراً ولكن وجد الفرنسيون سنة ١٨٠٠ بالحجج القديمة ما يثبت وجود فدادين بمصر السفلى بالقرب من النيل تحتوي على ٤٥٨٠ متراً مربعاً او ٣١٠ قصبات وأخرى بعيدة عن أفرع النيل مساحتها ٨١٤٠ متراً مربعاً او ٥٥١ قصبة مربعة ، وكان الفدان بدمياط ٦٩٠٥ امتار مربعة او ٤٧٠ قصبة مربعة

وبمديريتي المنوفية والقليوبية توجد حجج شرعية تثبت ان مسطح بعض الفدادين — وتسمى بالفدادين الصغرى — مساحتها ٢٠٠ قصبة مربعة وبالفدان الكبير مساحته ٤٠٠ قصبة مربعة

وابتداء من سنة ١٨٦١ اصبحت مساحة الفدان ٤٢٠٠٫٨٢ متر مربع ولا تزال الارض تؤجر في مديرية الشرقية باعتبار الفدان ٣٠٠ قصبة مربعة تعويضاً للمالك عن الطرق والترع وغيرها التي يدفع عنها الضريبة والتي تستبعد من اطيان المؤجر

أما الأفدنة الصغيرة التي لم تزل مستعملة فقد دام استعمالها باعتبارها ١٨ أو ٢٠ أو ٢٢ قيراطاً من ٢٤ قيراطاً أي الفدان القانوني. وعند عمل مساحة القليوبية سنة ١٩٠٣ عثرت مصلحة المساحة على أوراق رسمية ذكر فيها الفدان باعتبار ٢١٫٥ قيراط و٢٢ قيراط وفي الأراضي البور شمالي بلقاس باعتبار ٢٥ و٢٦ بل ٣٠ قيراطاً

واستمر العمل الحكومي في تعيين المسطحات بطريقة المسّاح المصري القديم حتى بعد صدور أمر عالٍ سنة ١٨٧٩ بإنشاء مصلحة التاريع فقد تابعت هذه المصلحة المسّاح القديم في عملية المسطحات وامتازت عنهُ بعمل رسومات للحقول والبلاد

وفي عهد سموّ خديو مصر عباس حلمي باشا الثاني انشئت مصلحة المساحة حوالي سنة ١٨٩٢ وبدأت في عمل المسطحات حسب المساحة الهندسية ، اما الاهالي فهم مستمرُّون في عمل المسطحات على حسب قاعدة أجدادهم الاقدمين الى الآن لان هذه الطريقة توفر عليهم عمل رسومات وتقسيم الاشكال التي تتمّ في الحقل بدلاً من المكتب . وهذه العملية سريعة وتقريبية لدرجة انها قد تزيد أو تنقص بين ٣ ٪ و ٥ ٪ عن الحقيقة . وهذا فرق طفيف ومسموح بينهم لسرعة السير في العملية ونهوها في نفس الحقل

أما الأعمال الهندسية الحديثة فتتطلب من الوقت اكثره ولا يركن اليها الأهالي الاَّ في الأراضي الثمينة المقدار مثل أراضي البناء . والنتيجة التي وصلت اليها هي أن المسّاح المصري القديم

هو أقدم مسّاح في العالم وأول من سهّل على الفلاح اعماله الزراعية من فصل حدود ومساحة أرض ، وأوجد له وحدة للاطوال ووحدة للسطوح ، وان طريقته هذه أسرع من الطريقة الهندسية والفرق بينهما يغتفر في نظير الوقت الذي تحتاج اليه كل من الطريقتين

والدفاتر التاريخية المنشأة حسب طريقة المساح القديم والموجودة بين أيدي أهالي مصر الوسطى تسهل على الفلاحين عملية فصل الحدود لاشتمالها على ابعاد اضلاع الحقول بالقصبة

أما الخارطات المساحية فصعبة التطبيق بالنسبة له وقد يكون الخطأ في تعيين البعد سبباً في جناية تقع بين المتخاصمين

وما اتبعته المساحة الحديثة الآن من دق حديد في فواصل الحدود قضى على مشكلات كثيرة وحبذا لو كان وضعها إجباريًّا بعد أن تتداخل بصفة رسمية في فصل الحد المختلف عليه

نخرج من هذا البحث الى نتيجة تشرّف المهندس المساح المصري فقد أوجد طريقة هندسية سهلة للغاية لقياس الأطوال والمساحات فبدأ بإيجاد وحدة للقياس وهي الذراع ومضاعفاتها وهو الحبل الملكي وطوله ١٠٠ ذراع ثم القصبة التي تحدد طولها بمقدار ٣٫٥٥ متر بأمر عال صدر في سنة ١٨٦١ وأوجد وحدة للمساحة الغيطية مسطحها ١٨س و١٥ط وهو الستات وانتهى الى الفدان الذي قدرت مقادير مسطحه بالقصبات المربعة وانتهى بجعله بصفة رسمية :—

٣٣٣ ١/٣ = ٨٣ر٤٢٠٠ متر مربع بأمر عال سنة ١٨٦١

وأوجد الكسور المسماة بالكسور القبطية وهي أجزاء القيراط ومضاعفاته برموز مختزلة لا تزال مستعملة الى اليوم في مصر وانتقلت الى الأقطار الشرقية المجاورة . وهذه طريقة لم يسبقه اليها أحد من المهندسين

هذه صفحة المساح المصري القديم وهي كما تبدو خالدة الأثر، وتلك طريقته وهي بلا شك تنطق بما كان له من فضل على الأطوال والمساحات ما زال يفيض على مختلف الاجيال الى وقتنا هذا فقلّ ان نرى رجل القرية يعمد الى غير طريقته لما يكتنفها من السهولة والسرعة وعدم الحاجة الى تعدد الأيدي العاملة او استخدام الآلات المساحية الحديثة فضلاً عن الوصول الى نتيجة مباشرة دون الحاجة الى الرجوع الى المسائل الحسابية المتشعبة لاسيما وان الفارق بين استخدام هذه الطريقة والطرق المساحية المستحدثة لا يكاد يجاوز نطاق المسموح سواء بالزيادة او النقصان

ويستخلص من ذلك ان طريقة المساح المصري هي من حيث النظر أسرع ومن حيث العمل أيسر ، ولا أدلّ على ذلك من أنها لا زالت صاحبة الحظوة في القرى يستخدمها مساحو المديريات ورجال القرية في كل ما يتصل بأعمالهم المعروفة وتقسيماتهم المساحية بحيث اضطرت مصلحة المساحة الى مسايرتهم بعض الشيء فسجلت على جوانب لوحات المساحة مقاييس بالوحدات القديمة (القصبة) رغم استعمالها الوحدات المترية في جميع أعمالها المصلحية

معجزات الزجاج

العصري وما يرجى له من المنافع في الحرب والسلم

لعوض جبري (١)

ثبت من التجارب التي جربت في انكلترا « نقلاً عن جريدة المهندسين المعماريين الانكليزية » ان الوسائل المستعملة لوقاية النوافذ من أخطار الانفجار، تنحصر في أربع نقط أساسية أبسطها تركيب حاجز داخلي من شبكة سلكية مقرونة بمواد تقوم مقام الزجاج او بنوع جديد من الزجاج يكون من شأنه وقاية السكان من التغيرات الجوية . والثانية احلال الزجاج المقوي بالسلك محل الزجاج العادي . أما في نوافذ الحوانيت فتتبع هذه الطريقة مع تخشيب جزء من المساحة المشغولة بألواح الزجاج . والطريقة الثالثة ، تركيب ضلف للنوافذ يستطاع اغلاقها في أثناء الخطر وعند ما يخيم الظلام . والطريقة الرابعة استعمال الزجاج الممزوج بالأسمنت glass-concrete وهو ذو مقاومة شديدة جداً لتأثير الانفجار وشظايا القنابل والأنقاض المتناثرة

ويتوقع خبراء المباني في العالم انهُ في خلال السنين العشر الآتية ، ستصير المدن نظيفة دائماً وذات بيوت يتخللها الضوء ، خالية من الأركان الظلماء ، وليست في حاجة الى تزيينها بورق الحيطان ، اذ يتاح للمرء السكنى في دار زجاجية حيث يمكنهُ ان يقذف منها ما شاء من أحجار دون الخوف من انتقام المقذوفة عليه . فيبطل المثل المشهور « ان كان بيتك من زجاج فلا تقذف الناس بالحجارة » لأن الزجاج الحديث الاختراع لم يعد قصماً دائماً كما كان القديم في بدء اختراعه بل ليناً ليونة مدهشة . وقد أخذ استعماله في المباني وغيرها من ميادين الأعمال يزداد على الدوام ولذلك لم يبق (البيت الزجاجي) من العبارات الاستعارية او المجازية في الحديث . وحينئذٍ يصحُّ الاستغناء توًّا عن الصروح الشاهقة (ناطحات السحاب) ذات الواجهات الزجاجية وذلك لكساد سوقها ، ولكن المادة الزجاجية الواجهة في الحائط الخارجي التي تولد نتائج لونية ملائمة للذوق العصري ، وهي المادة التي تسهل تنظيف المبنى بالماء والصابون ، لا بدَّ ان تتزايد منافعها بنمو العمران العصري بحيث يضطر أرباب العقارات العتيقة إما الى جعلها ذات شكل جذاب وإما الى تقويضها توفيراً للضرائب التي يدفعونها لأجلها

وأحدث طرق الانتفاع بالزجاج في ميدان المباني ، استعمال ألواح الأسمنت ذات الوجوه

---

(١) المقصود بذلك الزجاج المصنوع من عجينة صمغ الاكريل «راجع مقتطف يوليو ١٩٤٠ ص ١٦٦»

الزجاجية التي تحتمل الاثقال وذلك في بناء الحيطان الخارجية، وستصبح الحيطان نفسها من هذه المصنوعات الجديدة إذ تستعمل وحدها في المباني الصغيرة ثم في المباني الشاهقة، مدعمة بدعامة بنائية

وتصنع الآن قوالب من الزجاج، فيها منشورات مسبوكة في سطوحها الداخلية لاجل التحكم في توجيه الضوء توجيهاً محدوداً. وثمة سلسلة من زجاج الزخارف المتم تقوم كذلك بتوزيع الضوء وافاضته وتوجيهه. ثم الزجاج المحشو sandwich glass وهو نوع آخر من الزجاج العصري، يسمح بدخول الضوء الموزع فقط. ويؤلف من لوح من الزجاج الشعري بمثابة حشوة تمنع مرور أشعة الشمس مروراً مباشراً دون احداث نقص محسوس في توصيل الضوء

وللزجاج الشعري fibre glass كذلك خاصية عزل الحرارة والصوت بعض العزل. وعلى حين يخدم الزجاج المسطح، صناعة البناء خدمة دائمة، فان التحسينات الجديدة في صناعته آخذة في توسيع مجال منافعه. ومنها الزجاج المقسى أو المسقي tempered glass وهو الذي يحمى (وهو عجينة) الى درجة عالية من الحرارة ثم تبرد سطوحه الخارجية تبريداً عاجلاً بعصبات الهواء المضغوط. وتبريد السطح تبريداً أسرع كثيراً منهُ في الباطن يحدث تمدداً، يزيد قوة الزجاج أربعة أضعاف فيجعله يكاد يبلغ قوة قطاع من الحديد المصهور (حديد الزهر)

وقد أسفرت التجارب التي جربت في ألواح الزجاج المقسى أو المسقى، عن احتماله لتأثير الحرارة القصوى للرصاص المصهور، إذا صُبَّ على لوح منهُ موضوع في الثلج فيتاح حَنْيُهُ الى زاوية درجة عشرين دون كسره. ثم انهُ قاوم الصدمات العنيفة واحتمل الاثقال الباهظة. واذا انكسر فعلاً فلا يتشظى بل يتحطم قطعاً صغيرة مثل الملح الصخري. وبما انهُ لا يستطاع قطعه ولا ثقبهُ بعد تقسيته، فتصنع الواحه بحسب المقياس المطلوب

وقد فتحت القوة الفائقة لألواح الزجاج المقسى أسواقاً جديدة له. فآثره بعض مفتشي المباني في انكلترا لصنع قوائم (برامق) درابزون السلالم حيث يحل محل المعدن المصهور أو المطرّق. وتصنع منهُ سبّورات للكتابة بالطباشير في المدارس وقاعات المحاضرات، ملونة بالالوان العاجية والخضراء والسوداء، تمتاز على السبورات الخشبية بكونها أقل اجهاداً للبصر وأطول بقاء وأسهل تنظيفاً ومحواً للكتابة. ويحلّ الزجاج المقسى أيضاً محل الزجاج الآخر في المواضع التي تتطلب احتمال الضغط العظيم. وأهم التحسينات التي استحدثت في الزجاج المسطح هي الزجاج الجديد الخاص بالسيارات، الفائق الأمن المقرون بالطبقات الداخلية، المصنوعة من العجائن الكيميائية الجديدة ووسائط الربط. اما فوائد الزجاج المسطح في الزخرفة والزينة الداخليتين فانها تتضاعف بكل سرعة بحيث يتعذر التفريق بين الجديد منها والشيء الذي ثبتت منافعه

وغني عن البيان ان المرايا قديمة الاختراع ولكن المرآة التي تصنع من زجاج أصفر ذي ظهر من الفضة لحديثة الطراز، وتولد انعكاساً ذهبيًّا للضوء، يروق النظر. أما الحشوات

الزجاجية المستعملة للزخارف الداخلية فقد أصبحت واسعة الانتشار . بيد ان الزجاج المحشو ونعني به المؤلف من لوحين بينهما طبقة من الزجاج الشعري فيؤلف طريقة جديدة في هذا الميدان اذ يظهر بمظهر الصدف حينما يبطل استعمال الألوان ، وينتج نتائج مختلفة بالمصابيح الخلفية أو بالزجاج الملون او بهما كليهما . ويستعمل الزجاج المحشو كذلك كحاجز رفيع يقوم بنشر النور وضبطه وباضعاف نقل الصوت والحرارة . وربما كان أغرب أنواع الزجاج وأقلها شهرة بين الناس ، الزجاج الشعري او الزجاج المغزول وهو الذي يصنع على شكل خمل الصوف ، أو خيوط الحرير ، التي يمكن نسجها منسوجات مختلفة . ويخيل توًّا لغير الفنيين حينما يسمعون اسم الزجاج الشعري ، انه من الميسور الارتداء به ، ولكن يحتمل انه لم تبذل مجهودات ما في ادخاله ميدان المنسوجات الصالحة للبس لأن النسيج الزجاجي قليل النفع ، اذا تيسر الانتفاع به غير أنهُ قد ينفع بعض النفع في البيوت اذ تصنع منهُ المظال البيتية « التندات » وسيصنع من هذا النسيج عما قريب نوع من مشمعات السفرة يفوق في مظهره أفخر أنواع الدمقس (وهو النسيج الحريري المشجر) فلا تتلفه السيجارة المشتعلة اذا وقعت عليه أو السائل المغلي اذا أهرق فوقه . ويستعمل الصوف الزجاجي glass wool المصنوع من الزجاج الشعري ، لعزل الحرارة في المواقد وصهاريج المياه الساخنة والمثالج وقاعات مخازن التبريد وحيطان البيوت ، ولأجل عزل الصوت في الحيطان والحواجز . ولخفة وزنه ، يُؤثَر على غيره من الوسائل للاستعمال ، في البواخر والطائرات ومركبات السكك الحديدية وغيرها من الأماكن حيث يكون الاقتصاد في الثقل اقتصاداً للمال

والزجاج الشعري يقاوم التآكل الذي تحدثه الحوامض ، فينفع في المرشحات الكيميائية اذ يوضع لوح من نسيجه بين لوحي بطارية الخزن فيجعل الحامض يدور في البطارية ولكنه يبطىء ذوبان ذينك اللوحين ، فيطول عمر البطارية

وقد ارتقت صناعة الأواني الزجاجية الجديدة ارتقاء متواصلاً ، مجاراةً لتحسين صناعة الزجاج البطيء التمدد المقاوم للحرارة اذ الزجاج الجديد البطيء التمدد جدًّا ، يقاوم أشد التقلبات في درجات الحرارة بلا كسر . وأغرب ما اختبرتهُ المختبرات العلمية في هذا الصدد انها وضعت طبقاً من الزجاج الجديد في حوض من الثلج وسلطت عليه لهب الأكسيجين فلم يتحطم

وما من شك في ان الزجاج الذي من هذا الطراز والذي يحتمل مثل هذا التأثير البالغ ، دون ان ينكسر لا بدَّ ان يوسع نطاق سوق أوعية الطبخ توسيعاً عظيماً كما انه سيشق طريقه في كثير من المرافق التي تتطلب الزجاج ولكنها لم تتمكن من الانتفاع بالزجاج القديم لعدم مقاومته تقلبات درجات الحرارة المرتفعة . فلا عجب اذا سمعنا صناع الزجاج يسمون العصر الحالي ، عصر الزجاج ، كما يدعوه صناع الفولاذ ، عصر الفولاذ ، وعلماء الكيمياء ، عصر الكيمياء ، ومدار ذلك جميعهُ على وجهة رأي كل فريق منهم ، ومبلغ ما يؤيد به مذهبه من البراهين العلمية .

وقد اتجهت أفكار مهندسي البناء حديثاً في انكلترا وأميركا الى بناء البيوت وغيرها من قوالب الطوب الزجاجي المجوف وذلك لـكيلا تحول نهاراً دون دخول الضوء في الحجرات . ثم انها تضيء ليلاً حينما يسري فيها التيار الكهربائي . وقد استعملت قوالب الزجاج في كثير من المباني العصرية التي تم بناؤها في بضع السنين الماضية الا ان أحدث التحسينات التي أدخلت فيها ملء تلك القوالب الجوفاء بغاز يضيء حينما يمرّ به التيار الكهربائي — فكل حجرة تبنى حيطانها على هذا النمط ، تتم اضاءتها جيداً دون احداث مواضع فيها ، باهرة الضوء ، تحدث سدراً مزعجاً لأبصار سكانها . واذا استعمل ذلك الحائط كحائط خارجي ، صارت الحجرة التي من هذا النوع ، مضاءة اضاءة كافية طول النهار ، من جراء الضياء الذي يتخلل حيطانها النصف الشفافة . ولذلك المبنى منفعة أخرى ، وهي ان حائطه ما دام مضيئاً بذاته فلا موجب لتركيب جهاز مستقل لحمل الضوء فيه . وما دام الضغط الداخلي ، فيه منخفضاً كل الانخفاض ، يقوم كل قالب مقام عازل جيد جداً للحرارة

واذا أريدت زيادة الاضاءة ،دُهنت بواطن القوالب الزجاجية بمادة تضيء بتأثير الأشعة التي فوق البنفسجية التي تتولد من الغازات التي يهيجها التيار الكهربائي . واذا مست الحاجة في الحجرة ، الى الأشعة فوق البنفسجية للتعقيم ، وما شاكله أمكن صنع القوالب من الزجاج الذي ينقل تلك الأشعة ، على أن يوضع في بواطنها قليل من الزئبق — تم ما قالته المجلة الانكليزية العلمية

وبما أني سبق أن كتبت مقالاً ضافياً نقلاً عن المجلات الاميركية في معجزات الزجاج الحديث في مجلة الموظف التي صدرت في مارس سنة ١٩٣٦ فرأيت أن أقتطف منها النبذة الآتية اتماماً للفائدة : — ويصنع من الزجاج ورق لزخرفة الحيطان بديع المنظر ، ويباع في ملفات تؤلف من خيوط رفيعة من الزجاج الملون ، مرصوصة على ظهارة من الورق ، وألوانه يختلط بعضها ببعض فتبهر الأبصار . ولما كان ذلك الزجاج يستطاع مده خيوطاً رفيعة جداً ، أصبح الانتفاع به ميسوراً في أعمال جديدة شتى . ومنه يصنع الصوف الزجاجي وذلك من خصل تؤلف من تلك الخيوط . ويستعمل في العزل وفي استخراج الغبار من الهواء المرطب . وقد اخترعت شركة أز ابلينويز مرشحاً جديداً للهواء ، فاستطاع التقاط ٩٠ ٪ من الهباء كما انه التقط حبوب اللقاح والبكتيريا من الهواء في اثناء مروره من ذلك المرشح . واستعمل الصوف الزجاجي في بواخر الركاب التي تمخر عباب المحيطات وذلك بمثابة اغطية حول أنابيب البخار ، بدلاً من المواد العازلة المعتادة فتمكنت البواخر باستعماله من تخفيف وسقها ٣٨٠ طناً أو ما يعادل ثقل اكثر من ٤٠٠٠ راكب . ويقوم مصنع كورنتج في أميركا بصنع أسنان زجاجية وكمنجات زجاجية ونعوش زجاجية للموتى . وغير ذلك من الأدوات الطريفة

تطور الاسرة المصرية(١)

للسيدة احسان احمد القوصي

في الأسرة ينشأ المصلحون والقادة والعلماء والفلاسفة وفيها تغرس في الافراد الفضائل الاخلاقية والعواطف الانسانية والمبادىء الديموقراطية وبين أحضانها تنمو عناصر الشخصيات القوية التي تقوم بالانقلابات الثورية والاصلاحات الاجتماعية التي تؤثر في تقدم البشر وسير الحضارة والعمران فهي مهد التراحم والتعاون ومنشأ السيطرة والتشريع ومرجع العادات والتقاليد واذا كنا لا نستطيع اصلاح الجماعات الا باصلاح الافراد فأقرب ما يكون ذلك في متناولنا وهم في الاسرة صغاراً في دور التكوين

والاسرة ككل نظام اجتماعي تخضع لنظام التطور والرقي كما يخضع الجسم الحي لنواميس الحياة وسنن النشوء والارتقاء وفي التاريخ أصدق شاهد ولا حاجة بي الى التبسط والرجوع الى عهد الامومة يوم كانت الاسرة قاصرة على الام والاولاد، ولا الى الخطوات التي تلتها بعد انضمام الأب اليها مسوقاً بعاطفة الحب والمصلحة، ولا الى تدرجها في الرقي حتى اصبحت وحدة اجتماعية تامة ويكفي ان أستعرض حال الاسرة المصرية في حقبة قصيرة من الزمن وعهد لا تزال نلمس آثاره ليتجلى لنا الشوط الذي قطعته في مضمار التطور من عهد محمد علي الى الآن ونتبين نواحي نهضتها ومواطن الضعف فيها ثم أبسط ما أراه لمقوماتها

كانت الاسرة المصرية الى ما قبل الاحتلال البريطاني متأثرة في الطبقتين العالية والوسطى من الامة بالطابع العثماني وحياة الحريم — على حد تعبير أهل الغرب — فكان رب الأسرة عائلها وسيدها المطلق له الأمر، وعلى نسائه الطاعة، زوجات كنَّ أو بنات أو أخوات. أما الزوجة فكانت تعيش في عزلة تامة عن العالم لا تدري من شؤونه شيئاً ولا تعرف غير بيتها وأولادها. يتزوجها صغيرة عادةً وفي كثير من الاحيان وهي دون سن البلوغ، ويوفر لها من وسائل العيش وضروب المتعة المادية ما تسمح به ظروفه الخاصة. لا ترى من الرجال الا محارمها أو جماعة الأغوات ولا تبارح بيتها الا لضرورة ماسة فلا تعرف طريق الاسواق ولا تخرج لنزهة أو رياضة. فتعيش حياة خمول

(١) محاضرة القيت في القاعة الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة

وكسل فيزيد وزنها ويترهل في غالب الاحيان بدنها وتقضي عمرها في تلك الدائرة الضيقة وقد ضرب عليها الاستبداد حجاباً حجب عنها نور العلم والعرفان وحاطها بسياج من الخرافات والأوهام. اذا مرضت لجأت الى وصفات العجائز وأكثرها خزعبلات وان عجزت هرعت الى الدجالين والعرّافات والله وحده يعرف عدد من رحنَ ضحية جهالة الذين كانوا يرون الموت خيراً من عار احضار الطبيب لانقاذ ام في ولادة متعسرة أو صبية أسقمها داء دفين. حدث أن مرضت ابنة شابة لأحد أدباء ذلك العصر المشهورين فأحضر لها الطبيب فلما دخل لعيادتها وجدها في سرير وقد تدلت عليه كلّة من الشاش حتى لا يرى منها شيئاً فجلس الى جانب فراشها وجعل يسأل عما تحس به ويستدرجها حتى تأنس اليه فيكشف عليها فطلب منها ان يجس نبضها فأخرجت له يدها فطلب رؤية لسانها

أتعلمون يا سادة ماذا فعلت! لم تعيها الحيلة فقد مزقت الكلة وأخرجت منها لسانها وغلبته على أمره. هذه قصة حقيقية ما زالت صاحبتها على قيد الحياة وقد سمعتها منها بنفسي وهي صورة صادقة لأغلب نساء عصرها

أما من كان يسعدهنّ الحظ ويتعلمنَ — وقليلاً ما كنَّ — فكان تعليمهنّ لا يعدو القراءة والكتابة وحفظ القرآن فقد كانوا يرون كما كانت اوربا في العصور الوسطى ترى تعليم البنت ضاراً ولو اقتصر على محو الأمية وكان التعليم يتم في البيوت اذ لم تكن في مصر مدرسة واحدة للبنات في عهد محمد علي. ان ديوان المدارس قدر ما لتعليم البنت في النهوض بالمجتمع المصري أشار سنة ١٨٣٧ على محمد علي بانشاء مدارس لهنّ أسوة بالبنين فان الاقتراح لم ينفذ في عهده لأن المجتمع لم يكن يألف كما يقول ارتين باشا في كتابه تعليم البنات في المدارس واكتفى محمد علي بانشاء مدرسة للقابلات كان كل تلميذاتها عشر جواري حبشيات من سرايه كان يصحبهنّ الى المدرسة بعض الأغوات لحراستهنّ. أما بنات اسرته وجواريه فقد عهد بتعليمهنّ الى المسز ليدر زوجة أحد المبشرين الانجليز التي أنشأت أول مدرسة بنات سنة ١٨٣٥ بتشجيع تلميذتها كبرى بنات محمد علي وزوجة محرم بك امير الأسطول المصري ولن أزيدكم بياناً وأترك لكم الحكم على تربية ابناء الجيل وحال أمهاتهم على ما رأيتم من الجهل والتأخر لتدركوا لماذا رسفت بلادنا في قيود الاستعباد كل تلك السنين الطوال وأنتم تعلمون ان الشعب لا يرتفع فوق مرتبة نسائه

ظلت الأسرة المصرية على تلك الحال من التأخر ردحاً من الزمن غير قليل ولو ان الأسرة المسيحية كانت أحسن حالاً اذ سبقت اختها المسلمة في الاقبال على ارسال بناتها الى مدارس الارساليات التي ظهرت قبيل منتصف القرن التاسع عشر بقليل فتسرب بتعليمهنّ بصيص من

نور العلم الى البيوت فأضاء جوانبها ورفع مستواها. ثم قامت الطوائف الشرقية غير المسلمة تنشىء المدارس فأنشأ الأقباط في عهد الأنبا كيرلس الرابع أول مدرستين للبنات ومن ثمَّ سارت الأسرة المسيحية في طريق الرقي بخطوات وئيدة ولكنها ثابتة، وحفز ذلك بعض الأسر المسلمة على الاقتداء بها وارسال بناتهم الى مدارس الارساليات على ان الرأي العام كان يستنكر ارسال البنات الى تلك المدارس

ولما أتى عهد اسماعيل بزغ فجر عصر جديد في تطور الأسرة ونهضة الأمة بفضل همة ذلك المصلح الكبير فقد نهض بالتعليم حتى بلغ عدد المتعلمين من الذكور في البلاد ٤٪ بعد ان كان قبل عهده ١٪ وشجّع الأوربيين على فتح المدارس للبنين والبنات حتى بلغ عددها في احصاء سنة ١٨٧٣ سبعين مدرسة. وفي نفس السنة بدأ انشاء مدارس البنات فأسست زوجته الثالثة تشما أفت هانم المدرسة السيوفية بايعاز منهُ ودخلها نحو مائتا تلميذة لم يمض عام حتى تضاعف عددهنَّ. وفي سنة ١٨٧٥ أسس مدرسة للمكفوفين والخرس من بنين وبنات فكان أول من عمل على اختلاط الجنسين في التعليم واقتنع بضرر تعدد الزوجات فأبى ان يكون لبناته ضرائر كما أبى ان يكون لأولاده الثلاثة الكبار غير زوجة واحدة ناهيك بالنظام والتجديد الذي دخل البيوت بتزويجه الجواري المتربيات في قصوره من وجوه البلاد

ولما قضت الظروف المالية المعروفة بالاحتلال لم يتغير الحال كثيراً وخاصة في العائلات المسلمة فبقي سوادها خاضعاً لسلطان العرف والتقاليد نافراً من التغيير والتجديد حتى ان المرحوم قاسم لما قام في أواخر القرن التاسع عشر بصرخته المدوية وتجاوب صداها في أرجاء الشرق تعرَّض لمر النقد من الكتّاب ورجال الدين من مصريين وغير مصريين ولم يجبذ دعوته الاَّ نفر قليل من الخاصة أقنعتهم حجته وأدركوا أثر دعوته في رقي الأسرة ونهضة الأمة لهذا لم تؤت تلك البذرة الصالحة ثمارها الاَّ بعد ربع قرن او يزيد اختمرت فيه فكرة تحرير المرأة وساعدت على اختمارها عوامل شتى في داخل البلاد وخارجها كان أولها التقدم الاقتصادي الذي زاد في ثروة البلاد ورخائها وساعد على قيام الحضارة ونشر التعليم وارسال البعثات العلمية الى أوربا

وثانيها التقدم العلمي الذي سهل المواصلات وزاد في روابط الصلة بين الشرق والغرب وفتح الأذهان لنقد النظم والتقاليد فلم يعد لها تلك القداسة التي كانت لها في نظر أجدادنا وثالثها حركة مباركة قامت بها المسز بنكهرست زعيمة المطالبات بحق النساء في انكلترا مع أربع وستين سيدة من خريجات الجامعات ذهبنَ الى البرلمان وقدمنَ اليه عريضة جاء فيها «لقد سئمت نفوسنا مظاهر العطف وضروب المجاملة والتحبيذ التي يبديها رجال السياسة ويريد النساء تحقيق مطالبهنّ وسيستأنفنَ السير فاما نيل المرام واما الحمام»

ولما خرجت من البرلمان شرعت تجول في طول البلاد وعرضها تخطب في المعاهد العلمية والجميات والاندية ووصلت الى اكسفورد حيث عقدت مع زميلاتها عدة اجتماعات قررن في ختامها عقد مؤتمر في السنة التالية . وفي مايو سنة ١٩٠٧ قامت جمعية خريجات اكسفورد بعقد المؤتمر وضم نخبة كبيرة من أقطاب العلم وأساطين الفكر ورجال المال أذكر منهم السير اوليفر لودج العالم الطبيعي والسر وليم كروكس الكيميائي والعلامة رنتجن الألماني والفيلسوف هنري برغسن وأرنست هيجل البيولوجي وكوخ البكتريولوجي واللورد جلفن وماركوني وأديسن ومدام كوري واينشتين وبرتراند رسل وتولستوي ومكسيم غوركي وغستاف لبون وأدمون دي مولان وسارة برنار وكارنيجي وفورد ومرجان ، لبى كل هؤلاء الاقطاب دعوة المؤتمرات واجتمعوا من مختلف أقطار الأرض تأييداً لتلك الحركة المباركة وخطب عشرة منهم في مركز الفتاة في الهيئة الاجتماعية ومزاياها العقلية والروحية وما يمكن ان يشاد عليها من الرفعة والمجد في حياة استقلالها ووردت برقيات التأييد من ملك انجلترا وملكة هولاندة وامبراطور المانيا ورئيس الولايات المتحدة وغيرهم. ولما انتهى المؤتمر رفعت قراراته الى برلمانات اوربا وأميركا وحكامها وجامعاتها فكان لها اثرها البعيد في العالم كله وخاصة بعد ان تحققت مطالبهن في كثير من الدول .

وكان رابع العوامل ابطال الرق فقد كان لتلك الحركة اثرها في تقدير حق الحرية الشخصية والثورة على انواع العبودية وما هو أن أصدر البرلمان البريطاني قانوناً حدد بمقتضاه أول اغسطس سنة ١٨٣٤ لتحرير كافة الارقاء في الممتلكات البريطانية حتى بلغ عدد المحررين سنة ١٨٤١ في الهند الشرقية وحدها اثني عشر مليوناً وسرعان ما اقتدت دول الغرب ببريطانيا فأبطلته السويد سنة ١٨٤٦ وفرنسا والدنمارك سنة ١٨٤٧ وهولندا سنة ١٨٦٢ وتلتها باقي الدول تدريجيًّا ثم تحولت الجهود لابطاله في الدول الاسلامية فلم يأت عام ١٨٧٧ حتى عقد اسماعيل مع بريطانيا معاهدة لابطاله ومنع الاتجار به فلم يكن من المعقول بعد ان تحررت في مصر وغيرها الاماء ان ترضى بالاستعباد باقي النساء

وخامس العوامل تحرير المرأة التركية ونهضتها العظيمة بعد ان أخذ بيدها بطل الاستقلال كمال أتاتورك وأزال العراقيل من سبيلها فانطلقت الى ميادين العلم والحياة تسعى جاهدة وشاركت الرجل في بناء مجد بلادها وكان لنهضتها وهي المرأة المسلمة صدى بعيداً في الأمم الاسلامية خاصة

وسادس العوامل البعثات العلمية وسفر الكثير من المصريين الى اوربا مما ساعد على اقتباس الكثير من العادات الغربية في طرائق الحياة والتفكير ونبه الأذهان الى مواطن الضعف وأثار الهمم للعمل على الاصلاح فبضدها تتميز الأشياء

ولعلّ أبلغ ما أستشهد به نبذة من كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين الذي وضعه رفاعه بك الطهطاوي بعد عودته من الدراسة في اوربا فكان اول من دعا فيه الى وجوب تعليم البنات ومساواتهنّ بالبنين واختلاط الجنسين فقد جاء فيه « ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج فان هذا مما يزيدهنّ ادباً وعقلاً ويجعلهنّ بالمعارف أهلاً لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهنّ لزوال ما فيهنّ من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها وليمكن المرأة عند الاقتضاء ان تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر طاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهنّ وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهنّ من العمل يشغل ألسنتهنّ بالأباطيل وقلوبهنّ بالاهواء وافتعال الأقاويل فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء »

وقد كان في قيام مصريات لمعن كالنجوم الزاهرة وسط الظلام المخيم على اخواتهنّ ما أيد حجة القائمين بالدعوة الى تعليمها وتحريرها أذكر منهنّ فاطمة الأزهرية والسيدة الطبلوية وتلميذتهما عائشة التيمورية التي تلقت عنهما النحو والعروض

ثم كانت آخر العوامل قيام الثورة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ فتحطمت آخر القيود التي قيدت المرأة فبرزت من خدرها واندفعت في حماسة الى ميدان الجهاد وانفسح أمامها مجال العمل وتفتحت أبواب الأمل وبدت طلائع المستقبل المنير

وهكذا ترون ان تقدم الأسرة المصرية لم يأتِ طفرة فقد كان لكل عوامل من تلك العوامل نصيبه في تمهيد سبيل النهضة وتهيئة الأفكار للتطور المنتظر كما كان لما يحدث في الغرب صدًى بعيداً تجاوب في مصر فأيقظها من سبات طال أمده وفتح عينيها لاستقبال نور العلم وضياء الحرية وسرعان ما استجابت لنوازع التجديد في نظمها الاجتماعية والعلمية والسياسية وأسرعت الخطى فقطعت في فترة وجيزة ذلك الشوط البعيد في نهضتنا الحديثة وكان طبيعيًا ان تنال الأسرة نصيبها من هذا التطور الكبير وخاصة بعد ازدياد المدارس وانتشار تعليم البنات واطراد الزيادة في الاقبال عليه وتدرجه في الرقي تدرجاً دفع بالاسرة الى التقدم دفعاً سريعاً فتطورت العلاقة الزوجية وأصبحت تقوم بين طبقة على التفاهم والتعاون وبعد ان كان الزوج هو السيد المطلق الحاكم بأمره والزوجة في نظره متاعاً وأداة لانتاج الأولاد أصبح اليوم رأس العائلة وأصبحت هي العنق التي تحركه في رفق وهوادة لا يشعر معهما بغضاضة وصارت الزوجة شريكته وصديقته لا أمًا لأولاده فحسب تحررت من أسر الحجاب وأيقنت ان الحجاب ما حجب عن

أخلاقها الشرّ والسوء فخرجت من عزلتها السحيقة لتستنشق نسيم الحياة الحرة طليقة وشاركت زوجها التمتع بمباهج الحياة تحضر معهُ الاجتماعات وتدعى الى الحفلات وترافقه في الزيارات والخروج للرياضة والترويح عن النفس فاستغنى كثير من أفاضل الأزواج بهذا الاشتراك العائلي السعيد عن ارتياد المقاهي والبارات والسهر في الأندية والصالات ووسع هذا الاشتراك واقبالها على قراءة الجرائد والمجلات أفق الحياة أمامها فصارت أكثر بصراً لأمور الحياة وترفعت عن السفاسف وبعدت عن الخرافات وصارت تشعر بقيمتها وتعتز بكرامتها وتقدير مسئوليتها نحو الاسرة والمجتمع والانسانية وكانت النتيجة الحتمية لهذا كله ان ارتفع مستوى البيوت وارتقى فيها الذوق وسادها النظام وتقدمت صحة الاولاد وتحسنت تربيتهم وصار تعليم البنات ضرورة كتعليم الاولاد وأقبل كثير من بنات كرام الأسر على معاهد العلم العالية ينهلنَ من نبعها الصافي فانفسح أمامهنَّ طريق العمل واشتغلنَ بالتعليم والتحرير والتمريض وغيره وساهمن بنصيب مشكور في الشئون العامة فأقبلنَ يواسينَ المريض ويساعدنَ الفقير ويحتضنّ اليتيم وشمل برهنّ مختلف الطوائف وما كادت تشتعل نار الحرب الضروس حتى انهالت طلبات المتطوعات لتخفيف ويلاتها ومصابها . هذا حال الأسرة المصرية الحديثة والاتجاه الذى تسير فيه اليوم . غير ان الأسر المتعلمة لا تزال قليلة اذا قيست بمجموع الأمة لاقتصار التعليم على الطبقتين العالية والوسطى واذا كنت قصرت بحثي الى الآن على هاتين الطبقتين فليس ذلك تقليلاً من شأن الطبقة الثالثة وهي سواد الشعب ودعامته وانما لأن التطور الذي أصاب تلك الطبقة ضئيل ضعيف الأثر

إن مهمة الباحث الذي يستعرض حال الأسرة المصرية ليتناول عيوبها بالعلاج مهمة شاقة عسيرة لا بدَّ له معها من الأناة والروية ذلك ان الموضوع جد خطير يزيد في صعوبته تفاوت غير قليل في سلم الرقي الاجتماعي واختلاف غير يسير في مشاكل الأسرة في كل طبقة من الطبقات وقد ترددت بأيها ابدأ ، أبالطبقة الدنيا وهي السائدة الغالبة أم بالطبقة العالية وقد أعطي لها الزمام في القيادة أم بالطبقة الوسطى وهي حلقة الاتصال التي تخضع لناموس التأثير والتأثر ثم رأيت ان أكتفي بعرض أبرز العيوب في المجتمع المصري وأعظمها خطراً على كيان الأسر . وسأحاول ما استطعت ان ألمسها في رفق ولين ، حتى لا يكون لشوكها ما يجرح عاطفتكم ويدمي فؤادكم

***

قفوا بنا عند تعدد الزوجات وارجعوا الى الاحصاءات التي تنتهي بنا الى كثرة الطلاق وما يترتب عليه من شقاء العائلات . من دواعي السرور ان أخذ الكثيرون يقلعون عن تعدد

الزوجات حتى انعدم أو كاد في بعض الطبقات وأصبحت الحالة الاجتماعية تناهضهُ وتنظر الى مرتكبيه في كثير من النقد وعدم الارتياح ، غير ان الأسف يبلغ أشده عند ما نرى اسفاف الطبقة الدنيا في كثرة تعدد الزوجات والطلاق واساءة حق شرع للضرورات فأصبح في يد الجهلة سيفاً مسلولاً يقضي على هناء العائلات . نرى الواحد منهم لا يرضى أن ينقضي بهِ الزمن دون أن يكون له اكثر من زوجة ينجب من كل منها طفلاً أو أكثر فينشأوا على الحقد والضغينة بحكم اتصالهم بأمهاتهم حقداً يحملهم في كثير من الأحيان على الأجرام كما يدفعهم اهمال الأب وعجزه على الانفاق الى التشرد . وكيف يمكن ان يعول اسرة كبيرة العدد في حدود دخل ضيق شديد الضيق . أليس من الجريمة في حق الوطن والانسانية أن نوافي المجتمع بجيش من الأطفال ليس أمامهم الاَّ البؤس والشقاء. ان الاحصاء في العشرين سنة — من ١٩١٠ الى ١٩٣٠ — يظهر اضطراد الزيادة في عدد المخالفات والجنح والجنايات التي يرتكبها الأحداث. وما هؤلاءِ الاَّ ابناء أغفلهم آباؤهم وحرموا الحنان وقست عليهم الأيام فانطلقوا هائمين على وجوههم في الطرقات يلتمسون الرزق بأيسر الوسائل وانغمسوا بدافع الحاجة في الرذائل ينشلون ويسرقون ويغشون ويخدعون ولم يجدوا من يهديهم سواء السبيل فاستمرئوا مرعى الاجرام صغاراً ثم شبوا فصاروا من عتاة المجرمين كباراً ويمنعني الحياء من ذكر ما سمعته من سيدة انجليزية تشتغل في بوليس الآداب عن الفتيات الشريدات في بلادنا وخطرهنَّ على الصحة والأخلاق ويكفي ان تعلموا ان منهنَّ أغلب البغايا المحترفات . الاَّ أن الأمر جد خطير ووقاية المجتمع من تلك الشرور يتطلب من الحكومة القيام بعلاج سريع ناجع وسن قوانين مشددة تحمي الأسرة وتمنع تعدد الزوجات الاَّ لضرورة ماسة وبأذن من القاضي كمرض لا يبرء أو عته أو نحوه . ان الاسرة المسلمة في مسيس الحاجة الى تشريع يحميها من تلك الفوضى ويوثق الصلة بين افرادها ويقضي على الانحلال الذي يدب فيها ويسبب انهيارها ويفرق شملها بسبب سوء استعمال حق الطلاق . فالطلاق اذا كان كسلاح الجراح نعمة في كثير من الاحيان لا يجب ان يلجأ اليهِ الاَّ بعد اليأس من كل علاج . وكما ان عملية البتر لا يقوم بها الاَّ الطبيب ، كذلك الطلاق يجب ألاَّ يتم الاَّ أمام القاضي حفظاً لكيان العائلات وحرصاً على مصلحة الأولاد

***

وهناك مشكلة ثانية لا تقل عن الاولى خطراً على حياة الاسرة هي انصراف الكثيرين عن البيوت . فتجد دور اللهو وصالات الرقص والحانات ونوادي القمار عامرة بجيوش من الرجال وأغلبهم أرباب أسر وآباء أولاد يقضون فيها السهرات الطويلة فينفقون مالهم ويضيعون صحتهم او ينهكون أعصابهم في ميسر ثم يعودون الى بيوتهم مهدمين تجيش في صدورهم

ثورة وحقد هي كل ما كسبوه من موائد القمار، تدفع ثمنها الزوجة المسكينة وهي تنتظر الزوج من عودته على مضض من الألم فاذا نصحته رغب عن كل نقد او نهته عدّ عملها تحكماً وحدّاً من حريته

ولعلكم لم تنسوا قصة السيدات اللاتي قصدن الى مكتب الآداب منذ عهد قريب ورفعن اليه شكايتهن من انصراف الأزواج الى بيت أحد أصدقائهم في سبيل المقامرة . ومن ادعى دواعي الأسف ان هذا الداء الوبيل لم يقتصر ضرره على جماعة الأغنياء بل تعداهم الى الطبقات الفقيرة فزادهم بؤساً على بؤس يدفعهم الأمل الكاذب في زيادة دخلهم فلا يلبثون حتى يضيعوا قوت عيالهم ويعودوا اليهم وهم صفر اليدين. ومن العجيب ان بعض الأزواج يتطلب العفة والفضيلة في زوجته ولا يتخذها لنفسه شعاراً ويحل لنفسه ما يحرمه عليها وينسى ان الشرائع جميعاً الدينية والاخلاقية تسوي بينهما وان له ما لها وعليه ما عليها . وينسى أنها مخلوق مثله تحس وتشعر وتتألم . وانهُ ليدفع الثمن غالياً عندما ينفذ صبرها فتهجر بيت الزوجية ويتشتت شمل العائلة . أما اذا أعوزتها الحكمة فقد يدفعها الغيظ الى الانتقام فتسير سيرته وتهوى الى القرار الذي انحدر اليه

ومن أكبر الخطر على الفضيلة والاخلاق في المجتمع ان يشب الشاب على فكرة خاطئة تنزل منهُ منزلة الايمان فيعتقد ان مخالفة الفضيلة لا تشينه ويجد من الرأي العام سنداً ، أليس في ذلك تشجيعاً على الاستهتار والانغماس في الفساد ، اني أهيب بالآباء والمربين والكتّاب والمصلحين ان يعملوا جميعاً على محو هذا الخطأ الشائع من أذهان النشء حرصاً على سلامة المجتمع من أخطاره الكثيرة

ومما يهدد كيان الأسر انصراف الشبان عن الزواج وهو محمود اذا كان الاحجام تريثاً من الشاب حتى يهيء له أسبابه ويستطيع كسب ما يعول به أسرته ويقوم بتربية أولاده غير ان هناك طائفة تتخذ الأحجام عن الزواج مبدأ تدين به ولست أدري أي جمال يعجبهم فيه وأية فلسفة يدعون اليها وليس فيهم ابو العلاء في زهده . إلاّ أنها فلسفة شائكة بعيدة عن جادة الحكمة تنهض على هدر الفضيلة وتقوم على الفوضى وتقضي على أجمل وأنبل العواطف الانسانية. نعم ان في الزواج تضحية وتقييداً لشيء من الحرية ولكنهُ قيد محبب الى النفوس عزيز عليها ذلك ان لحمتهُ المودة والرحمة . فليسمع الشباب وليعلموا ان كل من أسس أسرة فاضلة فقد وضع بيده لبنة في صرح الوطن وأحيى جيلاً . ومن هرب من تحمل المسؤلية وعاش لنفسه فقد هدم جيلاً بأسره . وليذكروا وهم يأخذون على الفتاة مزاحمتها لهم في الأعمال ويظنون انها سبب تعطل الكثيرين منهم ان انصرافهم عن الزواج من أقوى الأسباب التي تدفعها الى الاعتماد على نفسها لكسب عيشها وصون كرامتها

ومشكلة اخرى تواجه الاسرة المصرية وتزلزل كيانها تلك هي انخفاض مستوى معيشة الملايين من الطبقات الفقيرة انخفاضاً نزل بها عن مرتبة الحياة الانسانية . ويزيد الحالة سوءاً كثرة العيال في تلك الطبقات كثرة أصبحن معها نواجه مشكلة اطراد الزيادة في عدد السكان في وقت زاد فيه الكفاح في سبيل العيش واشتد ضغط الحياة حتى اصبح الرجل في كثير من بلاد الريف يعمل طول يومه بقرشين والمرأة بأقل من ذلك

بالله . . . كيف يمكنني وصف حال هذه الاسر التي لا تجد الكفاف الاَّ بشق النفس ان القلب ليذوب حسرة ويفيض ألماً ويكاد يعجزني عن الكلام فلأترك لحضراتكم تصور الحالة الصحية والاجتماعية لتلك الاسر فكلكم يعرف بؤس الفلاح وما يحيط به من شقاء وما يفتك به من امراض . وتصوروا معها حال اسر المتعطلين الذين سدت في وجههم ابواب الرزق وضاقت بهم سبل العيش . ان مشكلة ازدياد السكان مشكلة عويصة لا بدَّ لعلاجها من همم وجهود جبارة وعندي ان نبدأ فوراً بمنع تعدد الزوجات ونشر الدعاية لتحديد النسل اذ ما من شك في أن كثرة الانتاج في الطبقات الفقيرة والطبقات التي تليها هي علة تلك الزيادة . وعلينا ان نعمل على نشر تعليم الصناعات المنزلية الصغيرة ليكون من دخلها معيناً للاسر الفقيرة على سد حاجاتها ورفع مستوى حياتها . ولا نغفل انشاء الصناعات التي تتوفر أسبابها في مصر واستغلال الأراضي البور ومختلف موارد الثروة المصرية ونشر التعليم بين سواد الشعب فلا سبيل الى النهوض بالطبقات الفقيرة بغير تعليم شعبي صالح يعمم عن طريق الالزام وبغير تضافر جهود القائمين بالأمر والعاملين على الاصلاح على رفع المستوى الاقتصادي لتلك الطبقات الى مستوى يتفق مع الكرامة الانسانية لأن الفقر والجهل هما علة جل ان لم يكن كل مشاكل الأسرة في تلك الطبقات

***

هذه يا سادة أهم مواطن الضعف في العائلة المصرية اجمالاً منها ترون ان بعض تلك العلل يرجع الى اثرة الرجل وأنانيته وبعضها يرجع الى تقاليد كان لها أثر بعيد وبعضها يعود الى نقص التربية وعجز القوانين عن حماية العائلة وتوفير أسباب سلامتها وتقصير الشارع المصري في سد هذا النقص واذا كنت قد أغفلت ذكر كثير من العيوب والعادات التي تحتاج الى الاصلاح والتقويم كحب الظهور والميل الى الاسراف وأساءة البعض لفهم الحرية وتطرفهم في الاختلاط. فلأني أخشى ان يطول بنا المقام ان أنا استعرضت كل ما تشكو منهُ الأسرة المصرية واكتفيت بما قدمت من العلل لأني رأيت فيها أعظم ما يهدد كيان الأسر ولا بدَّ من المبادرة الى علاجها لننهض بمجتمعنا ومصرنا العزيزة . وختاماً أشكركم على حسن اصغائكم

الأدب والعلم

مفاضلة بقلم أستاذ كبير

الروايات الممتازة أصدق وأبقى من كتب العلم

[وليم ليون فلبس William Lyon Phelps أستاذ الادب الانكليزي ورئيس دائرته في جامعة يايل الاميركية مشهور في أميركا وانكلترا بمنزلته الادبية العالية وآرائه في تاريخ الادب الانكليزي ونقده. فهو متعصب للادب حتماً على العلم ولكنه ليس تعصب رجل يحجب الهوى الحقيقة عن عينيه. بل هو يؤيد رأيه بالحجة القوية والواقع ان جانباً غير يسير من الحق ملازم رأيه في الناحية التي اختارها للمفاضلة بين العلم والادب قال : —]

مع أن العلم يفوق الأدب في دقتهِ وروعة الجديد فيهِ إلاَّ انهُ لا يكاد يقرب من الأدب العالي في صدقه فالروايات العظيمة أصدق في الغالب من أي مؤلف علميّ

لنفرض انني استاذ للطبيعة وانني دخلت ذات صباح حجرة التدريس وقلت لنستعمل اليوم كتاباً في الطبيعة الف من خمسين سنة أي سنة ١٨٩٠ فلا ريب عندئذٍ في أن الضحك يغلب على الطلاَّب . فأقول لهم : ألم يكن مؤلف هذا الكتاب ثقة في موضوعهِ، ألم يكن أميناً للعلم وللحقيقة ؟ فيردون عليَّ كان المؤلف كلَّ ذلك وأكثر منهُ ، ولـكنهُ وضع مؤلفه من خمسين سنة . ولو كان حيًّا اليوم ، لما كان لهُ مفرٌّ من تنقيحه وإعادة كتابتهِ وطبعه . ان الطالب المبتدىء في علم الطبيعة يستطيع ان يشير الى ما فيهِ من خطإ يجب أن يحذف ، أو قول لا بدَّ من تعديله . لان كثيراً مما كان صحيحاً في عرف العلم سنة ١٨٩٠ أصبح لا يستقيم اليوم . بل هناك أشياء كثيرة كانت صحيحةً سنة ١٩٢٠ في نواحٍ من علم الطبيعة ولـكنها ليست صحيحة اليوم. فالعالِم يجب أن يدأب على تنقيح مؤلفاتهِ مجاراةً لتقدم العلم وتحوُّلهِ

والواقع انني اظن ان معدَّل عمر النظرية العلمية لا يزيد على سبع سنوات . فما يكاد ينشر أحد الباحثين نتائج بحث قضى فيهِ ثلاثين سنة ، حتى يطلع باحث آخر بعد بضع سنواتٍ ببحث آخر يهدم بهِ معظم ما ذهب اليهِ الباحث الأول

فيجب ان تستوثق أيهـا القـارىء عند ما تبتاع كتاباً علميًّا ، أو دائرة معارف من ان الكتاب او الدائرة من أحدث طبعة . ومن المقابلات الطريفة ان الطبعة الاخيرة من الكتب العلمية

هي أكبر قيمة من نسخ الطبعات القديمة، الا لمن يبتغي الطبعة القديمة لحفظها في متحف او للاطلاع على حالة العلم في موضوع ما في وقتٍ ما . أما الآثار الادبية العظيمة فأقدم الطبعات أغلاها على الاطلاق وليس السر في هذا التفاوت ببعيد الغور

كان العلامة دارون معاصراً لدكنز. الاول عالم لا يشق له غبار. والثاني روائي من الطبقة الأولى. فالاول دوّن في مؤلفاته «الحقيقة» عن التطور العضوي كما تبينها واستخرج الأدلة على صحتها. والثاني صنّف روايات، ولكن لو كان دارون حيًّا اليوم لاضطرَّ ان يحذف صفحات متعددة من كتبه وأن ينقح الصفحات الاخرى . أما دكنز فلا يكون مضطرًّا ان يحذف كلمة واحدة من رواياته . ان كتاب « اصل الانواع » لا يصح بحذافيره الآن ولا يستقيم بل ان طائفة من رجال العلم ترى ان جانباً كبيراً منهُ خاطىء . اما « داڤيد كوبرفيلد » آية دكنز في تأليفه الروائي ، فصادقة اليوم صدقها يوم كتبت وأخرجت للناس

ألّف شكسبير مسرحية « هملت » من نحو ثلاثة قرون . ومع انني استاذٌ للادب الانكليزي ، وأمتاز على شكسبير بأني درست ثلاثة قرون من هذا الأدب العالي كانت حافلة بالأعلام والعباقرة ، أحسبني أكبر أبله في الدنيا اذا حاولت أن أنقح رواية هملت . ولقد اتيح لي ان اشاهد درامات يونانية كتبت أربعة قرون قبل المسيح ، تمثّل أمام ابناء القرن العشرين فتترك أثرها البالغ في نفوسهم وعقولهم . ان هذه الروايات في صدقها ، كأنها كتبت البارحة . فما الباعث على ذلك وما تفسيره ؟

ان النتائج التي يفضي اليها البحث العلمي ، والتصريحات العلمية العامة التي يفوه بها العلماء ، تتقلب وتتحول متأثرة بعوامل متعددة. بل قد تكون الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي عرضة للريب . حالة ان الحكايات العظيمة ، والقصائد ، والدرامات ، صادقة كانت وصادقة ما تزال. والباعث على ذلك في نظري ، هو ان الروايات العظيمة قائمة على فهم او وصف شيء مستقر ، لا تتغير اصوله ولا تتبدل الا على المدى البعيد وهو « الطبيعة البشرية »

الطبيعة البشرية لا تتغير . لم تتغير في الماضي مدى التاريخ المعروف ولا يحتمل ان تتغير في المستقبل الذي يدركه الخيال . فالرجال والنساء الذين نراهم في شوارع المدن العظيمة في سنة ١٩٤٠ تحركهم نفس النوازع والغرائز والشهوات والرغبات التي كانت تحرك الناس قبل عشرة آلاف سنة ، اذ كانوا يطاردون بعضهم بعضاً بالفأس . والفرق الوحيد بين الفريقين ان الجماعة التي توصف بأنها متمدنة تمكنت بالتعليم ان تفوق أسلافها قليلاً في السيطرة على نوازعها

ان رجاء الانسانية ليس بمعقود على تغيير الطبيعة البشرية ، ولكنه معلق بزيادة السيطرة على بواعثها الأساسية وفقاً لأحكام العقل وضرورات الاجتماع [منقولة بتصرف يسير]

على هامش الحروب الدولية الحاضرة :

مصر وطريق الهند

في القرن الثامن عشر

— ٣ —

لجمال الدين الشيال

(المنافسة تبدأ بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر — البحر الاحمر) — في هذه الآونة كانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا على أشدها . وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ففي سنة ١٧٧٧ أرسل إنسلي الى حكومته تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت Baron de Tott المفتش العام للثغور التجارية الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة ساعياً لامضاء معاهدة تجارية مع المماليك [١] . وذكر انسلي في تقريره أيضاً ان بعثة دي توت كانت تعني بأمور أكثر جدية من هذه المعاهدة وانها كانت تعني بدراسة الوسائل الممكن اتباعها لغزو مصر والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والهند واعادة حفر الخليج الذي بين النيل والبحر الأحمر ، كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقريب شقة الخلاف بين بلدوين Baldwin من ناحية وإنسلي Ainslie والحكومة الانكليزية وشركة الهند الشرقية من ناحية أخرى ، وسافر بلدوين في سنة ١٧٧٨ الى القسطنطينية ليسعى هو وإنسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الانكليزية التي تحمل المراسلات بالوصول الى السويس ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب وحذرتهما من السماح لأية سفينة بالتقدم شمال ثغر جدة . وعاد بلدوين الى القاهرة مظهراً الطاعة ولكنهُ فيما بينه وبين نفسه لم يقلع عن الفكرة لأنهُ كان لا يزال يعتقد بأفضلية طريق السويس [٢]

وأخيراً اقترح إنسلي على وزارة الخارجية ان تستعمل طريقاً آخر لايصال مراسلاتها الى الهند . هذا الطريق يبتدىء من حلب ويخترق العراق الى البصرة ومنها الى بمباي . . . (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ — ١٨٠١) ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق الآمن ذلك لان العربان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلبونهم ما معهم وقد يقتلونهم

(١) Ch. Roux, Op. Cit. P. P. 94-95 (٢) Hoskins, Op. Cit. P. 20

ولم تكد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع ان طريق السويس على وشك ان يهجر ، فقد كان الباب العالي عاقداً النية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الأحمر وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي . ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت الى السويس سفينتان تحملان العلم الدانمركي ولكن يقودهما رجل انكليزي اسمه جورج مور G. Moore وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال الى الأمير المملوكي في القاهرة وكان معه في السفينة رجل ألماني يدعى فان در فلدن Van der Velden يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم الى بلدوين Baldwin

أما بلدوين فلم يجرؤ على مساعدة القوم. ولكنهُ عندما وصلته أوامر الأمير المملوكي بالاعتناء بتجارتهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم . . وسار مور الى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباقون (وهم هذا الألماني وأربعة من الانكليز وفرنسيان) طريقهم في قافلة تحمل تجارتهم نحو القاهرة وقد بدأوا رحلتهم آمنين غير مسلحين أو مستعدين لمقابلة ما عساه يعترضهم من أخطار، ذلك لأن الأمير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم فحسب، بل زوّدهم بالجمال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة. ولكنهم فوجئوا بعد ان اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بجماعة من البدو انقضوا عليهم فسلبوهم بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٫٥٠٠ جنيه بل وسلبوهم ملابسهم التي تغطي أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء وقد عاد أودونيل O'Donnell — وهو أحد الاربعة الانكليز — الى السويس . وأما الباقون فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون الوصول الى القاهرة فساروا في طريقهم ، ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق فقضوا نحبهم من الجوع والعطش والتعب وضربة الشمس ، الاّ واحداً من الفرنسيين أنقذه أحد الفلاحين وهو في آخر رمق من حياته

وصل أودونيل O'Donnell الى القاهرة عن طريق السويس وهناك استطاع بمساعدة بلدوين الحصول على مبلغ من المال كهبة للمساعدة وفي نفس الوقت غيّر الامير المملوكي خطته وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة . وألقى القبض على مور وبلدوين وأودونيل وأودعهم جميعاً السجن وأرسل البك تقريراً بالحادثة الى الباب العالي كما أرسل بلدوين وأودونيل تقريرهما كذلك الى السير روبرت إنسلي Sir Robert Ainslie

وافق الباب العالي على الاجراءات التي اتخذها أمير القاهرة لأنها تنفيذ لسياسته ورغبته ، كذلك لم يجد إنسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب وان كان قد سعى سعياً جديًّا لدى الباب العالي ليأمر باطلاق سراح الاسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل ان يصله امر السلطان لأنهُ أحسّ الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب اوربا جميعاً

أطلق الامير سراح أسراه كلهم ما عدا بلدوين ولكن هذا سرعان ما استطاع الفرار من سجنه وهرب من مصر — تاركاً وراءه جميع ممتلكاته — على سفينة فرنسية حملته الى ازمير Smyrna ومن هناك ارتحل بلدوين الى القسطنطينية حيث بقي شهوراً طويلة يوزع اللوم في حنق وألم على كل من ظنهُ سبباً في هذه المأساة الاخيرة وخاصة على التاجر البندقي ذي النفوذ الكبير كارلو روسيتي Carlo Rosetti ، وعلى رئيس الجمرك انطون قسيس، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلدوين الى انكلترا محاولاً رفع شكواه الى حكومته متهماً انسلي بمماكسته وبخيانة وطنه وممالأة الاتراك في سياستهم، ومحاولاً في الوقت نفسه اقناع حكومته بالسعي لتشجيع طريق السويس وفتحه للتجارة والملاحة. وقد أثبت التحقيق براءة انسلي ، ولكن اخبار هذه الحادثة وصلت متأخرة الى الهند وانكلترا ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان انكليزيتان الى مدينة القصير فأنزلت الى البر خمسة من رجالها الانكليز ، وفي القاهرة أسر اربعة منهم وسمح للخامس بالسفر الى القسطنطينية ومعهُ الرسائل التي كان يحملها الى انكلترا ، وهناك فتحت احدى هذه الرسائل ومنها علم الاتراك ان السلطات الانكليزية في الهند لا زالت دائبة السعي لعقد الصلات التجارية مع مماليك مصر تبعاً لنصوص معاهدة سنة ١٧٧٥

وتمكن إنسلي بصعوبة شديدة من اطلاق سراح مواطنه وارساله الى انكلترا بما معهُ من رسائل . اما السفينتان الراسيتان في القصير فقد دهم البدو ملاّحيهما وقتلوا منهم خمسة حتى اضطر الربان الى اطلاق مدافعه على المدينة

وارسلت الحكومة الانكليزية الى الهند تكرر اوامرها وتشدد في تنفيذها — ألاّ يتقدم احد بتجارته او سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٧٩ ، وما حدث لرسل سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعمق أثراً من اوامر الحكومة الانكليزية او الباب العالي أو شركة الهند الشرقية

واذ اصبحت الاخطار التي تحدق بالتجارة الى مصر اكثر من ارباحها ، واذ اصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تسير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراناً تاماً، ولذلك لم تكد تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أقلعت السفن الانكليزية عن الذهاب الى السويس . ويقرّر هذه الحقيقة هوسكنس (١) « By the end of 1780 it was said that English vessels no longer came to Suez »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب اوربا لهذا الطريق ولذلك فقد حاولت النمسا ان

(١) Hoskins, The British Routes to India, P. 25

توجد لها — بالاتفاق مع الباب العالي — وكلاء او قناصل تجاريين في القطر المصري (في الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة) ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلا

﴿ فرنسا تتحفز للوثوب على مصر ﴾ وكانت فرنسا تصوّب أنظارها في جشع منذ أمد بعيد نحو مصر ، وكانت تحفزها الى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقاتها المعقدة مع انكلترا ولذلك فانها — بعد سنة ١٧٧٨ ، وبعد ان عقدت حلفاً مع المستعمرات الأميركية ضد بريطانيا — تضاعفت رغبتها في شل حركة التجارة الانجليزية في الشرق ، وعارضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي الى الاتفاق مع ايران للوصول الى الهند ، وكان بعضها يرمي الى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض

وفي سبتمبر سنة ١٧٨٣ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروعات وحاولت فرنسا الوصول الى الاتفاق مع مماليك مصر كما فعل الانجليز سنة ١٧٧٥ وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت الى ممثلها لدى الباب العالي تسأله اعداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقين المؤديين الى الهند وهما : طريق البصرة ، وطريق السويس

وفي سنة ١٧٨٤ وصل الى مصر القائد الفرنسي البحري شفاليه دي تريجيه Chevalier de Truguet ، وقدّر لهُ ان يكون أحسن حظًّا وأكثر نجاحاً من صحبه جميعاً ، ذلك أنه كان يحمل الى امراء المماليك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون Charles Magallon . واذا عرفنا ان مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً اكتسب في خلالها نفوذاً لا بأس به ، أدركنا كيف سهل على تريجيه الوصول الى الاتفاق مع المماليك

وأُمضيت المعاهدة في فبراير سنة ١٧٨٥ بين مراد بك وتريجيه ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين كما نصت على تخفيض الضرائب الجباة على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً

وعقد اتفاقان آخران : أحدهما بين تريجيه ومدير الجمارك في القاهرة خاصًّا بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند تفريغها في السويس . والآخر بين تريجيه وأحد مشايخ العربان خاصًّا بالقوافل التي تحمل البضائع الى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون الى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً

﴿ انجلترا تراقب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها ﴾ أحسّ رجال الحكومة الانجليزية بالندم يأكل نفوسهم أن أصرّوا في الماضي على العدول عن طريق السويس ، وانهز

هذه الفرصة بلدوين ورفع شكواه الى الحكومة فبرىء من التهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماه :

"The Communication with India by the Isthmus of Suez, vindicated from the Prejudices which have prevailed against it."

وحلل فيه وجهة نظر كل من الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية وأثبت بطلانها ، وألح على الحكومة الانجليزية أن تعيد السعي لاستعمال هذا الطريق والا جاء اليوم الذي يصبح فيه وصول الانجليز الى ممتلكاتهم في الهند تحت رحمة الفرنسيين وبإذنهم

وعهد الى بلدوين أن يضع مذكرة يصف فيها كيف يمكن للانجليز إحياء علاقتهم مع مصر من جديد ، وكتب بلدوين المذكرة وبيّن ان الطريقة الوحيدة هي تعيين قنصل انجليزي في القاهرة يرسل من قبله مندوبين له الى الاسكندرية والسويس ، واقترح لتغطية مصاريف هذه الوكالات السياسية حلاً من ثلاثة :

١ — احياء التجارة بين الهند والسويس ووضع ضريبة خاصة على هذه التجارة تغطي هذه المصاريف

٢ — أو الغاء الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية وتحويل الاعانة الحكومية السنوية التي تمنح لها الى هذا الغرض

٣ — أو تتكفل الشركة بدفع هذه النفقات من دخلها الخاص

ووافقت الحكومة الانجليزية على الفكرة ، وعُيّن بلدوين نفسه قنصلاً في مصر ، وقبلت الشركة أن تدفع له مرتبه السنوي وقدره ٥٠٠ جنيه ، وحددت مهمته بهذه الأغراض :

١ — أن يعمل لحماية رعايا صاحب الجلالة اثناء تجارتهم ومرورهم بمصر

٢ — أن يسعى لدى الحكومة المصرية للحصول على ضمان لحماية رعايا صاحب الجلالة وتجارتهم في ذهابهم الى الشرق وإيابهم منه

٣ — وهو الأهم — أن يراقب حركات الفرنسيين مراقبة دقيقة وأن يرسل لحكومته التقارير الوافية عن هذه الحركات

وأمرته الحكومة الانجليزية أن يسعى أول ما يسعى الى عقد معاهدة مع المماليك لا تقل في امتيازاتها عن المعاهدة التي عقدتها فرنسا ، ومهدت الحكومة له الطريق في القسطنطينية قبل ان يغادر وطنه الى مصر ، ولكن هذه الرغبة اعترضها فرمان الباب العالي القاضي بتحريم مرور التجارة المسيحية في البحر الاحمر ، فأرسلت الحكومة الانكليزية الى انسلي تأمره أن

يجعل أساس حديثه مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت للانكليز سنة ١٧٦٥

وأقلع بلدوين في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ، ولكن حظهُ السيء كان يلازمهُ اذ كان في مصر وقت وصوله جيشٌ وافد من تركيا لإخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية تهم بأشد أنواع الفوضى

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين امراء المماليك ، وكان المتغلب من هؤلاء الأمراء يتولى العرش ، ولكنهُ لا يلبث إلاَّ قليلاً حتى يغدر به أمير آخر فيأخذ مكانه بعد أن يقتله ، وكان كل أمير يحس أن أجل حكمه قصير ، ولذلك كان يتبع كل السبل المشروعة وغير المشروعة للحصول على المال ، وكان الباب العالي أمام الارتباكات الداخلية ، وتحت الضغط الروسي الملحّ الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لإخضاع هؤلاء المماليك . ولكن الكيل طفح أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قناصل الدول الاوروبية في مصر وإلاَّ عمد إلى تخريب كنيستي الفرنشيسكان في الاسكندرية ، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القنصل الروسي في الاسكندرية البارون دي تونوس Baron de Thonus

أمام هذا الخطر الداهم لجأت الهيئة الدبلوماسية الاوربية في الاسكندرية الى ممثلي دولها في القسطنطينية ، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ما عدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم الى الباب العالي ، ووافقت هذه الشكوى هوى في نفس السلطان فقرَّر العمل على إيقاف امراء المماليك عند حدهم ، وسرعان ما اتخذ الاسطول التركي أهبته كي يتقدم نحو مصر ، ولم يشأ السلطان أن يسند قيادة الأسطول الاّ لربانه الأكبر حسن قبطان باشا (١)

أما إنسلي فمع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سرَّ لهذه الاجراءات لأنها ستقضي اذا نجحت على معاهدة سنة ١٧٨٥ الفرنسية المملوكية

ووصل الأسطول الى الاسكندرية التي سلمت دون مقاومة تذكر ، وسار الجيش التركي الى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليهما بعد أن طارد جيش مراد وابراهيم نحو الصعيد

ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانكليز به أيما فرح، ولكنهم وجموا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف، ذلك لأن مبعوثهم بلدوين كان قد وصل مصر في ذلك الحين لعقد معاهدة مع المماليك فإذا بهِ يراهم مهزومين فارّين إلى أقاصي الصعيد ، وإذا بهِ يرى الاتراك يستولون على أزمّة الأمور في مصر فلم يكن أمامه إلاَّ الاعتراف بالأمر

(١) Ch. Roux. Op. Cit. P. 195.

الواقع فاستقر في عمله وعين له مندوبين في الاسكندرية والسويس . وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولاً تحقيق رغبته بالاتفاق معهُ (١)، ولكن هذا كان يحمل معهُ الفرمان القاضي بتحريم الملاحة المسيحية في البحر الاحمر

كذلك كان إنسلي يسعى — من ناحيته — لدى الباب العالي ليحبط مسعى بلدوين ، أما الحكومة الانكليزية فكانت قد عزمت عزماً أخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين انكلترا والهند

وأبى انكلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية ، وابتدأ القبطان باشا يميل الى الاتفاق مع الانكليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الاحمر ، ولكنهُ فوجىء بمساعدة انكلترا لروسيا إذ اكتشفت تركيا أن انكلترا تمد عدوتها بالسفن الحربية

في أثناء هذا كله كان بلدوين دائب السعي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً لأنهُ كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل ان تكون مهمة قد كلفتهُ الحكومة بتنفيذها

وأخيراً استطاع بلدوين — في ابريل سنة ١٧٨٨ — ان يرسل الى حكومته نتيجة سعيه، وتتلخص فيما يلي : —

« لقد نجحت في الحصول — من حكومة القاهرة — على حق السماح للمسافرين والرسائل بالوصول الى السويس بسفن الشركة ، وان تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان ، وان يمر هؤلاء خلال مصر في سلام ، ولقد أرسلت الأوامر بهذا الى السويس ، وأنا لا أشك ان هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فانهُ ليس من العسير الوصول الى الاتفاق نفسه مع الحكومة الجديدة » (٢)

ثم عاد فأرسل الى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس وانهُ قد سمح لهما بتفريغ بضائعهما ، وانهُ يعدُّ العدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انكليزيتين آتيتين من الهند وأن : « المرور في مصر الآن حر اذا شاءت الشركة ان تستغله »

***

﴿ انكلترا تفكر في الغاء قنصليتها بمصر ﴾ كان الاضطراب السياسي في مصر الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي العثماني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء

(١) Hoskins Op Cit P 38

(٢) Hoskins Op. Cit. P. 42

المماليك الثائرين بزعامة مراد وابراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مقاليد الأمور في مصر. كان هذا الاضطراب عاملاً من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب بطريق السويس. ولذلك أخذ الانكليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق لأنهم لم يجنوا الأرباح التي أمّلوها من تبادل التجارة بهذا الطريق بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح رغم بعده وكثرة نفقاته على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنفيل Lord Grenville وزير الخارجية الانكليزية في سنة ١٧٩٢ الى هنري دونداس Henry Dundas وزير الحربية باقتراح لالغاء وظيفة القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة نفعها. ولم يلاقِ هذا الاقتراح قبولاً في هذه السنة، ولكن اللورد جرنفيل أعاد الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلاً انهُ اذا كانت القنصلية الانكليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتولَّ هي أمر نفقاتها والاَّ فلا داعي لبقائها. وكان الاقتراح حلاً حاسماً لأن شركة الهند الشرقية والادارة الهندية لم تقبل واحدة منهما ان تزيد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنويًّا. ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في الثامن من اكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة الى مصر تلغي فيها انتداب بلدوين كقنصل لانكلترا

ولكن لحسن حظ بلدوين وصل هذا الأمر في غير حينه — ذلك انهُ بينما كان جرنفيل يؤكد ان لا فائدة من وجود بلدوين في مصر كان الأخير يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية. وتفصيل ذلك انهُ في ذلك الحين — أي في اليوم الأخير من شهر يناير سنة ١٧٩٣ — كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا وأصبح الاتصال بين لندن وبين الهيئات الحاكمة في الهند اكثر أهمية للانكليز منه في أي زمن مضى منذ عين بلدوين قنصلاً في مصر. ولم تكد أخبار اعلان الحرب تصل الى بلدوين حتى أسرع فأرسلها الى الهند قبل ان يصل الى علم الحامية الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالة في أوربا. وبذلك استطاع الانكليز الاستيلاء على Pondicherry وطرد الفرنسيين من الهند

كان هذا عاملاً هامًّا حفز دونداس Dundas الى ان يشير على وزارة الخارجية كي تعمل على استمرار قنصليتها في مصر وعلى تأييد بلدوين في سياسته لما أبداه من غيرة وحماس في الدفاع عن صالح الامبراطورية

وكان من حسن حظ بريطانيا ان بلدوين لم يغادر منصبه لأنهُ لم يستلم، لسبب غير معروف أمر عزله الصادر في ٨ فبراير ١٧٩٣، ولكنهُ مرض في ذلك الحين وكان مزمعاً السفر الى لندن حينما استدعت الحكومة الانكليزية وكيله الشخصي في لندن وأبلغتهُ شفهيًّا ان يكتب الى

بلدوين يخبره بأن الحكومة تريد ان تستبقيه في مركزه متولية أمر نفقاته حتى تضع الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها . وبذلك استأنف بلدوين مهمته وكأن شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث

﴿ بلدوين يعقد معاهدة جديدة مع مراد وابراهيم ﴾ كانت المهمة الاولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر — كما ذكرنا — ان يعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر .. ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة وعقد هذه المعاهدة بينه وبين مراد وابراهيم وقد حصل فيها على الترخيص للسفن الانجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس وعلى الترخيص للتجارة الانكليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية . وذلك مقابل ان يدفع التجار ضريبة مقدارها ٦ ٪ لمماليك مصر — يدفع نصفها التجار الانكليز والنصف الثاني العملاء المقيمون في مصر .. وليس غريباً ان نذكر ان المماليك قد رحبوا بعقد هذه المعاهدة اكثر من ترحيب بلدوين ونستطيع ان ندرك لماذا لم يكن هذا غريباً اذا عدنا الى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية ثروة المماليك التي مكنتهم من ان يحيوا هذه الحياة المفعمة بالبذخ والترف .. كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق الى الغرب . فكان لتفريغ البضاعة في الموانيء رسوم خاصة ولحق الابحار رسوم خاصة وللجمرك رسوم خاصة ولحق الشحن رسوم خاصة وهكذا ... واذا تذكرنا أيضاً ان هذا النبع الفياض قد غاض معينه منذ تحولت التجارة الى رأس الرجاء الصالح .. فليس غريباً اذن ان يحن المماليك الى قطرات تحاول ان تنحدر اليهم من هذا النبع الذي طالما سقاهم اللبن والعسل

وسعى بلدوين من ناحيته سعياً حثيثاً ليتوج هذه المعاهدة بالنجاح فأرسل صورة منها الى حكومته في لندن وأرسل صورة اخرى الى الهند يؤكد للتجار هناك أمله المؤكد في ان الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك ودفعه الى تأكيد هذا الأمل ان عدوه الألد إنسلي كان قد ترك مركزه في القسطنطينية ليتولاه من بعده روبرت لستون R. Liston ، لكن إنسلي حين عاد الى لندن كان أكبر همه ان يقضي على آمال بلدوين بتسفيه آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية . ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته حتى على علم بوصول (A. R.) مذكرته عن المعاهدة

﴿ مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ﴾ وبينما الحكومة الانكليزية تحاول جهدها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تنفض يدها من مصر وطريق السويس تماماً ، كانت هناك على الأفق دولتان قويتان تثير مصر اهتمامهما باستمرار ، هاتان هما روسيا وفرنسا

أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعقد الآمال الطوال وتحاول تنفيذها للوصول الى مياه البحر الأبيض المتوسط . . ولذلك ابتدأت انظارها تتجه نحو مصر . وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فئة من مماليك مصر بزعامة ابراهيم بك تعزيز استقلالهم بالتحالف مع احدى الدول الأجنبية ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع الروسيا. وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات فأسرع بإرسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ولكن الروسيا لم تسرع بإرسال هذه الغارة وانتظرت فرصة اشتباكها في الحرب مع تركيا حينما كانت مصر ولا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزوّدة بأربعين مدفعاً وتصحبها نقالتان تحملان بعض العدة والسلاح والهدايا الى الأمراء . . ووصلت هذه السفن الى دمياط يقودها القنصل الروسي السابق Baron de Thonus . ولاقت هذه الحملة الصغيرة كل عون من القنصل الفرنسي في ثغر دمياط . وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك . ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم والفضل في ذلك يرجع الى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو اسماعيل باشا

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل إنسلي الى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بعزم الروسيين على غزو مصر . . ولكن هذا العزم لم يكن أكثر من خطة وضعت لإرسال ثماني سفن حربية تتخذ طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتنفذ الى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتخرب مكة والمدينة وقبر الرسول ثم تهدد مصر ذاتها . . كانت هذه خطة وضعت كما ذكرنا ولكن الروس لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها

***

﴿ مقدمات الحملة الفرنسية على مصر ﴾ أما فرنسا فقد كانت أشد حزماً في اتجاهاتها . . وكانت المنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها اذا تحققت محاولات بلدوين المتكررة للسيطرة على طريق السويس . كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتتابعة الى مصر في القرن الثامن عشر ، ونخصّ بالذكر منها رحلتي قولن وسافاري Savary — أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين الى مصر . ولذلك لم تلبث فرنسا ان أعادت انشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها التاجر مجالون Magallon وجاء هذا التعيين قبل الأمر بعزل بلدوين بتسعة أيام مما أثار احتجاج الانجليز لدى حكومتها يطلبون استمرار بلدوين في مصر

وفي اكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل الى الاسكندرية Dubois Thainirlle ومهمته ان يعقد معاهدة مع المماليك لفتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند . وسرعان ما استشف

بلدوين من هذه المحاولات ان الفرنسيين يزمعون الاغارة على الهند عن طريق مصر بارسال جيش عبر مصر الى الهند لمساعدة Tippo سلطان ميسور وللقضاء على السيطرة الانجليزية في الهند . وسرعان ما أرسل تقريره الى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات . ومما يؤيد صحة هذا الخبر أن Magallon كتب الى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنهُ من الممكن ارسال فئة من الجيش عن طريق السويس عند ما تكون الرياح مواتية — وان الجنود لا يمكثون فوق البحر عن هذا الطريق سوى ستين يوماً في حين أنهم يستغرقون ستة أشهر اذا انتقلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح كما يقول « لا نفقد رجلاً في المائة ، على حين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو تتبعنا الطريق الآخر » ولتوضيح فكرتهِ كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرحيل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول الى الاسكندرية في العاشر من يوليو والى القاهرة في العشرين منهُ والى السويس في الخامس والعشرين وبعد خمسة واربعين يوماً تصل الى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا عدتهم للدفاع .. وان عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقتلاع الانجليز من البنغال حصنهم المتين »

ويقال ان رسائل Magallon كانت السبب الاكبر في اثارة النقاش بين رجال حكومة الادارة حول موضوع الاغارة على مصر فاستدعى ماجالون الى فرنسا لاستشارتهِ . وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر ثم على الهند قد اختمرت في رؤوس رجال الحكومة وابتدأت تخطو الخطوات التنفيذية . ومما ساعد على نجاحها ان بلدوين الذي كان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد وهن منهُ العظم واشتعل الرأس شيباً وضعف بصره فغادر مصر الى وطنهِ حيث قضى الايام الباقية من حياته

***

والقراء الكرام يعرفون جميعاً ما كان بعد ذلك من أمر الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وما كان من أمر فتح قناة السويس في عهد اسماعيل وما نعانيه حتى اليوم من طبيعة موقع بلادنا في هذا الطريق الى الهند أغلى درة في التاج البريطاني والى اجزاء الامبراطورية الاخرى كاستراليا أو نيوزيلند . ومن هذا أيضاً نتبين ان هذا الموقع الممتاز يستلزم من كل فرد في مصر ان يكون في نفسه قوة جبارة حتى تستطيع هذه القوة مجتمعة ان تتساند فتكون درعاً حصيناً يحمي هذه الكنانة المباركة من كل معتدٍ أثيم « انتهى البحث »

الحياة والموت

لا بُدَّ للانسان من ضجعةٍ لا تَقلِبُ المُضجَع عن جنبهِ
ينسَى بها ما كان من عُجْبهِ وما أذاقَ الموتُ من كربهِ
نحن بنو الموت . . فما بالنا نعافُ ما لا بُدَّ من شربهِ !!
تَبْخَلُ أيدينا بأرواحنا على زمان هيَ من كَسْبهِ !!
فهذه الأرواحُ من جَوّهِ وهذه الأجسامُ من تُرْبهِ
لو فكَّر العاشقُ في منتَهَى حُسْنِ الذي يسبيه لم يَسْبِهِ
لم يُرَ قرن الشمس في شرقه فشكَّت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ميتةَ جالينوس في طبّه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربهِ
وغاية المفرط في سِلْمهِ كغاية المفرطِ في حربهِ
فلا قضى حاجته طالبٌ فؤاده يخفق من رعبهِ

[لأبي الطيب المتنبي]

القبط وما يجب عليهم

نحو هذه اللغة

لفريد كامل

لا موضع للجدل والملاحاة في ان لغة أهل مصر: مسلمهم وقبطيهم هي اليوم اللغة العربية. نعم انهُ كانت لهم قبل الفتح العربي لغتهم المصرية وهي التي اصطلحنا اليوم على تسميتها «اللغة القبطية» وقد رافقتهم ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف، بل بقيت لساناً لهم حتى بعد الفتح ببضعة قرون. ولكن اللغة العربية كانت تزحزحها شيئاً فشيئاً عن مواضعها في دواوين الحكم ثم في سائر مرافق الحياة الى ان تركتها محصورة في الكنائس

ومما يحسن ذكره في هذا الشأن ما قاله المرحوم المسيو مسبرو العلاّمة الأثري في خطبة خطبها في نادي رمسيس في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وهو :—

«من المؤكد ان سكان مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر في أوائل حكم الترك . . . ولم يمضِ بعد ذلك قرن ونصف قرن حتى قدم الى مصر سائح فرنسي يدعى فانسليب في أيام لويس الرابع عشر فقدم اليهِ آخر قسيس قبطي يجيد التكلم باللغة القبطية وعجوز كانت تنازعه هذا الامتياز»

وليس المراد من قولي ان اللغة العربية هي لغة مصر الوطنية ان يهمل القبط لغة مصر القديمة او يقللوا من نشاطهم في العناية بها مع ما يرونهُ من اهتمام كثير من علماء اوربا بنشر كتبها وتأليف معجماتها، فحسبها جدارة بالخلود انها كانت المفتاح الذي فكَّ به العلاّمة شمبوليون رموز الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد وبالتالي كان لها الفضل الأول في فض اختام الحضارة الفرعونية واماطة اللثام عن وجه المدنية المصرية التي لا تزال آثارها موضع فخار المصريين وسبب مباهاتهم بالانتساب الى اولئك الأجداد

ولكني أعني بقولي هذا ان اللغة القبطية لم تعد — ولن تعود — لغة الأم والبيت والمدرسة والمكتب والمصنع والمتجر والمزرعة لأن اللغة العربية قامت مقامها في ذلك جميعهُ . وبات لهذه على القبط حق في ان يحذقوها ويباروا مواطنيهم في التضلع منها والتفوق فيها

ولا أجهل ان القبط يتلقون اللغة العربية في المدارس ويحفظون نحوها وصرفها ويقرأون

ويكتبون ويخطبون أحياناً بها وان نفراً منهم يجيدها. غير ان القناعة بهذا القدر دون الاستزادة منهُ هي التي أردت أن أنبه الأذهان الى ما فيها من خطل. ولعلَّ كثيرين غيري شعروا معي بالعواقب المريرة لهذا الخطل حينما أُنشيء مجمع فؤاد الأول للغة العربية ولم يجد المسؤولون «عالماً» قبطيًّا واحداً في هذه اللغة قميناً بأن يضموه الى أعضائه المصريين والأجانب

ويلوح لي ان علة تخلف القبط في هذا الميدان هي انهم اكتفوا من اللغة العربية بما يكفل لهم كسب عيشهم اليومي. ولكنهم حتى في هذا المجال الضيق كان محصولهم دون الكفاية. معتقدين ان الانقطاع لاتقان اللغة العربية او التعمق في درسها للغوص على دررها والوقوف على أسرارها ليس ضروريًّا لاستدرار أخلاف الرزق. وهذا هو موضع الخطأ فالمادة ليست كل شيء في الحياة المجيدة التي يجب ان تحياها الأمم « وليس بالخبز وحده يحيا الانسان » بل هناك الطموح الأسمى. وهناك لذة العلم لذاته. وهناك التخصص للخدمة ونفع المجموع. ومع ذلك فليس أبعد عن الصواب من قول القائلين ان النبوغ في اللغة العربية ليس مورداً للارتزاق. فنحن في عصر قطعت فيهِ الأمة المصرية والأمم العربية شوطاً بعيداً في ميدان الرقي الفكري وسيتضاعف على الزمن عدد المتعلمين وبذلك تتسع آفاق الأمل برواج بضاعة الأدب العربي بين هذه الأمم

***

وقد يعلل بعضهم عدم تمكن القبط من ناصية اللغة العربية بأن أبواب الأزهر الشريف لا تفتح لهم، فمثل هؤلاء يفوتهم ان في كلية الآداب في الجامعة المصرية قسماً للتخصص في اللغة العربية يقبل فيهِ المصريون بلا فارق. ويفوتهم أكثر من هذا ان علماء اللغة العربية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد المهجر ليسوا كلهم من تلاميذ الأزهر الشريف ولا تخرجوا في كلية اللغة العربية او في دار العلوم

فأحمد شوقي والشيخ محمد الخضري وأحمد زناتي وخليل مطران وبشارة الخوري والأب أنستاس الكرملي والمرحوم الدكتور صرُّوف والدكتور فارس نمر باشا وغيرهم من أعلام اللغة في هذا القرن والقرن الماضي لم يطأوا عتبة الازهر ولكنهم بلغوا أرفع مراتب الاجادة في اللغة نثراً ونظماً بما تلقوه من مبادئها في المدارس وما أضافوه اليها من نتاج تحصيلهم الشخصي

ومن الغريب انهُ ظهر من القبط في القرن الثالث عشر الميلادي غير واحد من جهابذة اللغة العربية كأبناءِ العسّال. ثم نضب معين هذا النبوغ فجأة ولم نسمع بعدهم بأن غيرهم بلغ مداهم اذا استثنينا ميخائيل عبد السيد وتادرس وهبي في مغيب القرن الماضي ومطلع القرن الحالي وعدداً يعد على أصابع اليد الواحدة من الذين أهلتهم معلوماتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الحرة

وبات جهد ما وصلنا اليه ان الذين خلا نطقهم من اللحن وتنزهت كتابتهم عن السقم والركاكة ليسوا الا حفنة صغيرة . أما معظم الذين يقرأون ويكتبون منا ، فلغتهم أقرب الى العجمة منها الى العربية ، حتى ان الدكتور طه حسين بك لم يسعهُ الا ان يشير الى ما لاحظهُ على رجال الدين القبط من القصور في هذا الباب في فصل يجب ان يقرأه القبط في كتابه النفيس «مستقبل الثقافة في مصر ».

وكم حزَّ في نفسي ما قرأتهُ في عدد من أعداد مجلة المصور الغراء عن عضوٍ قبطي محترم في أحد مجلسي البرلمان المصري وهو قولها « حبذا لو كانت لغة الخطيب لغة عربية مصونة بنحوها وصرفها ونصبها ورفعها » مع ان هذا العضو المحترم مثقف ثقافة عالية

***

ومن تحصيل الحاصل ان أصف جمال اللغة العربية وعمقها وسموها وغناها بالمعاني الرائعة والخيال الراقي وما فيها من قول سريّ معجز ومن ضروب الكلام البليغ والقصيد المرقّص . علاوة على ان العرب عالجوا بكلامهم شؤون الحياة واختباراتها ونوازع النفس البشرية وخطراتها وارتفعوا في كل ذلك الى مناط الافلاك وصفاً وتحليلاً واستنباطاً .

وحسبي أن أحيل القارىء الى أعلام كتبها وعيون مصنفاتها كالحماسة والكامل والامالي والبيان والتبيين والعقد الفريد والأغاني ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ودواوين البحتري وأبو تمام والمتنبي والأخطل وشوقي وحافظ وأصحاب المعلقات والمجمهرات وعشرات الشعراء في الجاهلية والاسلام وفيها من أفانين النثر والنظم ما يقوّم اللسان ويكسب حسن البيان ويولي المرء الاجادة في التعبير. والتبريز في التصنيف والتحبير ويبوئه مكان الصدر من أئمة الكلام وفوارس الكتّاب وحملة الأقلام. ينطق بالحكمة ويكشف عن علوّ الهمة بما يروي من روائع الأدب العربي وبما يجعله حجة في أصول اللغة وثقة يرجع اليهِ في قواعدها ويعول عليهِ في تقييد شواردها

وبلوغ هذه المرتبة في معرفة اللغة العربية والسباحة في محيطها الخضم لا يتيسران للطالب في سني الدراسة بل أنهما يتوفران بالمثابرة على المطالعة والبحث والاستظهار . ومن طلب العلا سهر الليالي . ومن خطب فتاة العربية أمهرها المهر الغالي . وما نبغ علماء العربية في جميع العصور الاَّ بالكد وانضاء القوى في الاقتباس والاقتناص ورواية أجود الشعر وأرق النثر

فالذي أوده أن يعنى القبط بهذه اللغة أضعاف ما أراه من هذه العناية وان يبرّز منهم في علومها وآدابها وفنونها وتاريخها عشرات ومئات حتى لا تظن بهم الظنون ولا توجه اليهم غمزات العيون ولا يقال انهم في هذا الميدان عاجزون او متخلفون

واذا وضع الشبان منهم نصب عيونهم الاستبحار في اللغة العربية وبلغوا الغاية من ذلك فانهم

بعملهم هذا لا يخدمون أنفسهم وحدها بل يخدمون الوحدة الوطنية ويعززون الرابطة القومية

ان من القبط كثيرين يجيدون الكلام والكتابة والتأليف باللغتين الانجليزية والفرنسية وبعضهم يتقن اللغة الايطالية او الألمانية ، واننا نطلب المزيد من هؤلاء « فكل لسان بالحقيقة انسان » . ولكن علام يدل هذا يا ترى . انهُ يدل على ان في مقدور القبط ان يجيدوا اللغة العربية بالأولى وهي اللغة التي ترافق المرء من المهد الى اللحد

وللشبان قدوة حسنة وأسوة طيبة بصاحب السعادة واصف غالي باشا فانهُ لم يكتف بما كشف من كنوز اللغة العربية بل أضاف الى ذلك انهُ نقل بعض هذه الكنوز الى اللغة الفرنسية بمؤلف شهير نال من أجله اكرام المصريين أجمعين في حفلة أقيمت له في سنة ١٩٠٦ . وفي هذه الحفلة قال أحمد شوقي :

انما « واصفٌ » بناء من الأخـــلاق في دولة المشارق عالِ
واهب المال والشباب لما ينـــفع لا للهوى ولا للضلال
ومذيق العقول في الغرب مما عصر العرب في السنين الخوالي
في كتابٍ حوى المحاسن في الـــشعر وأوعى جوائز الأمثال
من نسيب تحاذر الغيد منه شرك الحسن او شباك الدلالِ
ونظام كأنهُ فلك الليـــل اذا لاح وهو بالزُهر حالِ
وبيان كما تجلى على البر سل تجلى على رعاة الضالِ
ما علمنا لغيرهم من لسان زال أهلوه وهو في إقبالِ
بليت هاشم وبادت نزار واللسان المبين ليس ببالِ
كلما همَّ مجده بزوال قام خلٌّ فحال دون الزوالِ

الى ان قال : —

يا شباب الديار مصر اليكم ولواء العرين للأشبالِ
كلما روعت بشبهة يأس جعلتكم معاقل الآمال
هيئوها لما يليق بمنف وكريم الآثار والاطلالِ
هيئوها لما أراد (عليٌّ) وتمنى على الظبي والعوالي
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الاشغالِ
والى الله من مشى بصليب في يديه ، ومن مشى بهلالِ

حَدِيقَةُ المُقتَطَفِ

الشعر

في المعارك والحروب

لمحمد عبد الغني حسن

الشعر

في المعارك والحروب

لمحمد عبد الغني حسن

ذكّرتني المقطوعة الشعرية الانجليزية « في سهول الفلاندرز » بموضوع لا تفرغ مادة الكتابة فيه ولا ينتهي أمد الحديث عنه ، وهو موضوع الشعر والحرب . وهذه المقطوعة لطبيب كندي اسمه (جون ماك راي) كان ضابطاً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية العظمى وشهد بعينيه هول المعركة التي ظلت ستة عشر يوماً أسفر فيها دويّ القنابل ، ودمدمة المدافع عن سكون الضحايا وهجمة الموت في مقابر فسيحة تُرى فوقها الصلبانُ صفوفاً إثر صفوف (١)

ولعلّ هذه الأيام هي أكثر الأوقات مناسبة للكلام عن الشعر والحروب، فنحن نقرأ كل يوم خبراً عن معركة ، أو نسمع وصفاً لموقعة ، أو نرى أثراً لغارة في البر والبحر ، والسهل والوعر ، والقمة والسفح . ونرى عروشاً تزول ، وممالك تدول ، وأبرياء يصلوْنَ بحرِّ النار ، وهم لم يكونوا يوماً من جناة الحروب ولا أنصار القتال

وقد يتشعب بنا الحديث وتتسع مسالك القول لو أخذنا نحصي المعارك العالمية من فجر التاريخ وبدء التدوين وما قيل فيها من شعر ، أو ظهر فيها من شعراء . فذلك يقتضي احاطة شاملة ومعرفة تامة ،وذلك ما لا ندعي لأنفسنا العلم به او الاقتدار عليه

الا أن المطالع في الأدب العربي ، والقارئ لتاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم يصادف كثيراً من شعر الحروب ، وتقع عينه خلال قراءاته على أبيات متناثرة أو قصائد مطولة قيلت في إثارة حرب ، أو نجدة صريخ أو في وصف معركة أو في التفاخر بالشجاعة المبذولة ، والعزمة الماضية ، والبلاء الحسن

ولقد كان للعرب في جاهليتهم حروب كثيرة وأيام مشهورة ذكرتها كتب

(١) من مقال في مجلة النيويورك تيمس عدد يناير سنة ١٩٣٨ بقلم برنهارد راجنر

التاريخ والأدب . وعدَّ منها ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة خمسة وخمسين يوماً (١) . واكتفى بما ذكر تاركاً ما بقي منها للكتب الخاصة بذلك الموضوع . ولا يدخل في ذلك العدد ايام الرسول ووقائعه مع المشركين فقد أفردت لها دراسات خاصة في كتب السيرة ومراجع التاريخ الأولى كالطبري وابن هشام

والحرب نكبة يبتلى بها العالم وتنكب بها الأمم ، ويشترك في احتمال ضررها المحارب والمسالم والقاعد والمهاجم ، ويُذكيها أناس ويَصْلى نارها قوم براء

ولا شك ان العرب من قديم ذاقوا مرارتها واحتملوا مِرَّتها . ولذلك قالوا فيها : الحرب غشوم ، لأنها تنال غير الجاني . وسأل عمر بن الخطاب عمرو بن معديكرب الزبيدي عن الحرب فقال : « مُرة المذاق اذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن ضعف عنها تلف »

ولقد وصفها الكميت الشاعر ببيتين صادقين : (٢)

الناس في الحرب شتى وهي مقبلة ويستوون اذا ما ادبر القُبُلُ
كلٌّ بأمسيِّها طَبٌّ موليةً والعالمون بذي غدويّها قُلُلُ

وصوّر شاعر آخر قيامها وهي فتية تغري بالسلب والغنيمة ، وتنكرها بعد ذلك كأنها عجوز شمطاء . فأحسن التصوير ، وأبدع التشبيه حيث قال (٣) : —

الحرب أول ما تكون فتيةً تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهةً للشمّ والتقبيل

وما أشبه الحرب بالحب مع فارق في القياس وخلاف في النتيجة ، فأولهما يكون لجاجة وكلاماً . وثانيهما يكون مجانة وتسلّياً . ولكن الحب اذا تمكن صار شغلاً شاغلاً ، والحرب اذا استعرت صارت شرًّا وبلاءً . وما أصدق حينئذٍ قول نصر بن سيار فيها :

فان النار بالعودين تذكى وان الحرب أولها الكلامُ

(١) الجزء الثاني من « العمدة » ص ١٦٠ طبعة أمين هندية بمصر
(٢) عن عيون الاخبار ج ٢ ص ١٢٧ (٣) عن العقد الفريد وعيون الاخبار

فان لم يطفها عقـــلاء قوم يكون وقـــودها جثث وهامُ

***

والشعر مِحضأ(١) في الحروب يحرك النفوس ، ويمكن السخائم من القلوب ، ويدعو الجبان فيقلبه شجاعاً ويصيره مقداماً ، ويذكره الورع (٢) الهيوب فينقلب أسداً تسيل الدماء على صدره ولا يَدمى على العقبين كَلْمُه . ولقد تشجع معاوية بن أبي سفيان وصبر على قتال علي بن أبي طالب حينما ذكر أبيات الشاعر عمرو بن الأطنابة (٣) : —

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت : مكانكِ تُحمَدي او تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ وأحمي بعدُ عن عِرضٍ صحيحِ

وأغرب من هذا في باب إثارة الشعر للنفوس وتحريكه السخائم أبيات قالها سعد بن مالك بن ضبيعة يعرّض فيها بالحارث بن عُبَاد لانهُ ترك حلفاءهُ من بكر يقاتلون بني تغلب وتخلف عن القتال قائلاً « لا ناقتي فيها ولا جملي » . ولقد دفعت هذه الابياتُ الحارثَ بعد تخلفهِ الى القتال دفعاً وهي غير متعاقبة (٤) : —

يابؤس للحرب التي وضعت أراهط فاستراحوا
الحربُ لا يبقى لجا حمها التخيُّلُ والمراحُ
الاَّ الفتى الصبار في النَّـــجدات والفَرَسُ الوقاح
والنثرةُ الحصداء والـــبيض المكلل والرماح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصُّراح
فالهمُّ بيضات الخدو ر هناك لا النَّعمُ المراح
بئس الخلائف بعـــدنا أولادُ يشكرَ واللقاح
من صدَّ عن نيرانها فانا ابن قيس لابراح

(١) المحضأ كوزن منبر عود تحرك به النار لتهيج (٢) الجبان (٣) عن نقد النثر وعيون الاخبار (٤) عن حماسة أبي تمام ج ١ ص ١٩٤ طبع مصر

صبراً بني قيس لهـــا حتى تريحوا او تراحوا
ان المـوائلَ خلفهـــا يعتاقه الاجلُ المتاح
هيهات حـالَ الموتُ دو نَ الفوتِ وانتضيَ السلاح
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنـــةُ عند ذلك والسماح ؟؟

ومن عجائب الأمور أن الحارث بن عباد هذا هو الذي أثار بشعره القويّ بني بكر على بني تغلب ليأخذوا بثأر ابنه بجير الذي قتلهُ مهلهل . وكان قد اعتزل القتال ومال الى السلام . فلما جاءه مقتل ابنه لم يجد الاّ الرمح والشعر داعياً . وسار شعره في القبائل — قبائل بني بكر — محرضاً على القتال ، مهيجاً للنفوس ، معلناً في حنق الوالد المغيظ ، وسخط الشيخ المغدور بهِ قيامهُ الى الحرب ، داعياً بفرسهِ (النعامة) قائلا

قرِّبا مربط النعامة مني لقحت حرب وائلٍ عن حيالِ
فلعمري لأقتلنْ (بـُجير) عددَ الذرّ والحصى والرمال
قرّبا مربط النعامة مني ليس قولي يراد لا بل فعالي
يا بجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيدُ من رؤوس الرجال
لم أكن من جُناتها علم اللـــهُ واني لحرّها اليومَ صالي

وما كذب الشاعر ولا افترى . . فقد كان فعالاً لاقوالاً ودخل الحرب وخاض المعركة آخذاً نفسه بالوعد الذي وعد ، والعهد الذي قطع ، وهو ألاّ يتم الصلح حتى تمتلىء الأباطح بالرؤوس

***

وقد يجمع الشاعر الى مهمة الإثارة في الحرب مهمةَ تخذيل العدو ، والفتّ في عضده ، واشاعة التخويف في جوانب نفسه حتى لايقدم على محاربة قومه ومقاتلة أهله . ومهمة التخذيل هذه تقوم بها الآن مكاتب الدعاية ، الاّ ان هذه سبيلها النثر وتلك سبيلها الشعر والغرض في الحالين واحد والغاية في العهدين متحدة . ولعلهم اتخذوا الشعر في العصور الأولى لذلك نظراً لمكانته في النفوس وموقعه في

القلوب وأثره في الاسماع ، ولأن الشعر كان طاغياً على النثر غالباً عليه ، وكان له دونه المحل والمقام ، والمنزل والمكان . وأحسن مثال يحضرني الآن لهذا النوع من الشعر أبيات قالها ودّاك بن ثميل المازني وكان بنو شيبان أرادوا ابعاد قومه — بني مازن — عن ماء لهم فأخذ الشاعر يهدد الاعداء ويخذّلهم ويصور قومه في صورة الأبطال الذين لا تخضد شوكتهم ولا تغمز قناتهم قائلاً (١)

رُويدَ بني شيبان بعض وعيدكم تُلاقوا غداً خيلي على صفوان
تُلاقوا جياداً لاتحيد عن الوغى اذا ماغدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغرُّ من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
تلاقوهمُ فتعرفوا كيف صبرهم على ما جنت فيهم يدُ الحدثان
مقاديم وصّالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يماني
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو لأية حرب أم بأي مكان

ولا نحسُّ كبير فرق بين وصفه لخيله وجنوده وصبرهم على القتال وسيوفهم اليمانية القاطعة وبين وصف المتحاربين اليوم لما عندهم من مذخور العدد ومطوي العتاد

وقد يكون من علاقة الشعر والحرب الفخر الذي نراه كثيراً في كتب الأدب وهو ظاهرة تلفت النظر في الشعر العربي . وقلّ أن نجد لذلك نظيراً في آداب الأمم الأخرى . ويكون هذا الفخر بالشجاعة ذا قيمة لو لم يجاوز الحد المعقول أو يجنح الى الاغراق في المبالغة . ويكون أقرب الى الصدق لو عرف عن الشاعر ميل الى الفروسية أو اخلاص في البلاء . وقد كان ذلك واقعاً في الشعر الجاهلي وعصر الاسلام الاول ، اللهمّ الاّ بعض الشعراء الذين عرفوا بشجاعة اللسان وجبن القلب كحسان بن ثابت . فقد كان في لسانهِ جرأةٌ وفي قلبهِ تهيب

أما في العصور المتأخرة في الاسلام فقد صار الشعر تقليداً لما قال الاوائل وترديداً لما تناولوه من المعاني . وصرنا نجد الفخر بالشجاعة مثلاً صناعةً تصنع ، وألفاظاً تردَّد . ولو لم يكن لصاحبها من صدقها نصيب كما يقول ابن سناء الملك : —

(١) عن الحماسة لابي تمام

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى وغيري يهوى أن يعيش مخلدا
ولكنني لا أحذر الموت ان سطا ولا أرهب الموت الزؤام اذا عدا

ويُغرق بعد ذلك في الفخر الكاذب . وهو فخر — فيما أظن — يدعو اليه الشعور بالنقص فيقول : —

وأنك عبدي يا زمان وانني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

ومن أصدق الفخر بالشجاعة والتحدث بالبطولة ما ذكره عنترة العبسي عن نفسه وصدق بلائه في الحرب واتجاه الأنظار اليه وثباته على جواده في معلقته التي يقول فيها : (١)

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررتُ غير مذمَّم
يدعون عنتر والرماحُ كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بغرة وجهه ولبانهِ حتى تسربَل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليَّ بعبرةٍ وتحمحُم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي

ولا يقلّ عن عنترة صدقاً في الفخر بالشجاعة في الحرب وصدقاً في التعبير والوصف حينما يلتقي الجمعان — الشاعرُ الفارس قتادة بن مسلمة الحنفي الجاهلي الذي يصوّر معركة (حِرحان) خير تصوير حين يقول (٢) : —

قاتَلْتهم حتى تكافأ جمعهم والخيلُ في سَبَل الدماء تعومُ
اذ تتقي بسراة آل مُقاعس حدَّ الأسنة والسيوف — تميم
لما التقى الصفان واختلف القنا والخيل في نقع العجاج أزوم
في النقع ساهمة الوجوه عوابس وبهنّ من دعس الرماح كلوم
يمَّمت كبشهمُ بطعنة فيصلٍ فهوى لحر الوجه وهو دميم
ومعي أسودٌ من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤوسهم تسويم (٣)
قوم اذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم

وهناك نوع من الشعر كان له في ساح الحروب مكان أي مكان . وهو الأراجيز

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي (٢) الحماسة ج ١ ص ٣٢٠ (٣) علامات

التي ينشدها المحارب او المحاربون . وأغلب الظن عندي أنها كانت تنشد على توقيع خاص لم يصل الينا علمه وهذه الأراجيز مبثوثة في كتب التاريخ . ويجد القارىء كثيراً منها في كتب المغازي والفتوح . وأغلبها كان يستعمل في التحضيض على الحرب والاستمساك بالصبر حتى يكتب الفوز ، ويتم النصر

ولقد قيل في الجاهلية من هذه المرتجزات كثير،وقيل في الاسلام كثير كذلك حتى لتجد الكثير منها مشتركاً في اللفظ هنا وهناك، فلا نكاد نعرف القائل الحقيقي والراجز الأصلي . وبعض الأمثلة تكشف عن ذلك ، ففي واقعة ذي قار التي كانت بين العرب والفرس قبل الاسلام يقول حنظلة بن ثعلبة مرتجزاً (١) : —

القوس فيها وتر عُرُدُّ مثل ذراع البكر او أشدُّ

قد جعلت أخبارُ قومي تبدو أن المنايا ليس منها بُدُّ

ويقول أيضاً

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تفُلوا الفُرسا

والبيت الاول مما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي في عصر بني أمية مهدداً متوعداً أهل الكوفة (٢)

وفي وقعة ذي قار نفسها وقفت امرأة عربية تحضض الناس وتقول مخاطبة الرجال من قومها (٣) : —

إن تهزموا نُعانقْ ونفرش النمارقْ

او تهربوا نفارقْ فراق غير وامقْ

ولكن ابن هشام (٤) صاحب السيرة النبوية يذكر ان هنداً بنت عتبة وقفت تحرّض الرجال على القتال في غزوة (أُحد) بهذه الأبيات نفسها مع استبدال كلمة تهزموا بكلمة « تُقبلوا » . وهند بنت عتبة هذه هي المشركة التي بقرت بطن حمزة عم النبي في غزوة أُحد وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع إساغتها فلفظتها من فمها وعلت على صخرة ترتجز متشفية من المسلمين :

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٤ (٢) كتب الادب (٣) الطبري ج ٢ ص ١٥٣
(٤) سيرة ابن هشام ٣ ص ١٣

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحربُ بعدَ الحرب ذاتُ سُعرِ
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمّهِ وبِكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري شفيتَ — وحشيُّ — غليل صدري
فشكر وحشيٍّ عليَّ عمري حتى ترمّ (١) أعظمي في قبري

ولكن امرأة من المؤمنات المشتركات في الوقعة لم تستطع صبراً على هذا الرجز الذي قيل في وسط المعركة شفاء لغليل الصدر، فردّت عليها مرتجزة : —

خَزيتِ في بدر وبعد بدرِ يا بنت وقّاعٍ عظيم الكفرِ
صبّحك الله غداة الفجرِ مِ الهاشميين الطوال الزُّهرِ
بكل قطّاعٍ حسامٍ يفري حمزةُ ليثي وعليٌّ صقري
إذرام شيب (٢) وأبوك غَدْري فخضبا منهُ ضواحي النحر
ونذرك السُّوءُ فشرُّ نذرِ

***

ومن شعر الحروب ما قيل في وصف المعارك وصفة المواقع : وأول ما يخطر على البال من ذلك قصيدة أبي تمام التي يمدح فيها المعتصم ويذكر عمورية ويصف النار والدخان فيها فيبدع كل الإبداع في هذه الأبيات : —

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يشلّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحىً شحب

وللشاعر السريّ الرفاء — من شعراء القرن الرابع الهجري — شعر كثير في المعارك والحروب ولقد كان عصره عصر نضال مع الروم . ولا تخلو مدائحه للأمراء من وصف دقيق للمعارك التي خاضوا غمارها واصطلوا بنارها . وكان أكثر الامراء من ذلك نصيباً سيف الدولة بن حمدان الامير المحارب، والبطل المجاهد . وتعجبنا بائية للسري يصور فيها موقعة بين سيف الدولة والدمستق يقول فيها (٣) : —

(١) تصير رميمة نخرة (٢) شيب أصله شيبة ، علم حذفت تاؤه ترخيماً
(٣) ديوان السري الرفاء طبع القدس ص ١٨

لما تراءى لك الجمع الذي نزحت أقطاره ونأت بعداً جوانبهُ
تركتهم بين مصبوغ ترائبهُ من الدماء ومخضوب ذوائبهُ
فحائرٌ وشهابُ الرمح لاحقُـهُ وهاربٌ وذباب السيف طالبهُ
يهوي اليه بمثل النجم طاعنهُ وينتحيه بمثل البرق ضاربهُ
يكسوه من دمه ثوباً ويسلبهُ ثيابه ... فهو كاسيه وسالبهُ

ولا أبالغ اذا قلت أن هذه (اللوحة الشعرية) لمعركة حربية لا تقل صدقاً ولا روعة عن (لوحة زيتية) لمعركة حربية من لوحات السير مورهد بون أو المستر روبرت أوستين من مصوّري الحرب الحديثة المشهورين

***

وما دامت الحروب قائمة، وطبائع الطمع والجشع بين البشر مستحكمة متأصلة فسيظل الشعر الحربي قائماً :— يحض على القتال، ويرثي الأبطال، ويصوّر من أهوال الحرب ما لا سبيل الى تصويره الاّ بأقلام الشعراء، ويعلي من شأن النفوس النبيلة الكريمة التي تموت فداء عن وطن أو ذياداً عن حق، ويحض على السلام ... نعم يحض على السلام لو سمعت الآذان المتكبرة، أو لانت القلوب المتحجرة

وفي العصور الحديثة نجد في الحروب شعراً رائعاً قويًّا . وقصيدة شوقي التي عنوانها : صدى الحرب [١] في وصف الوقائع العثمانية اليونانية مملوءة بالصور الفاتنة التي أجاد شوقي تصويرها كأنه — رحمهُ الله — كان مشتركاً فيها أو آخذاً بنصيب المجاهد منها

وللمعروف الرصافي الشاعر العراقي قصيدة عنوانها « الحرب في البحر » يصور بها واقعة « توشيما » بين الروس واليابان تصوير من رأى وعاين لا تصوير من أنبىء وخُبر . اسمعه يصف البارجة بقوله [٢] :

كل مـخّـارة اذا حركت دفـا عـها خضخضت به القاموسا
مُـذ بنوها لهم كنيسة حرب تخذت كل مدفع ناقوسا
عرش بلقيس في المناعة لـكن قد حكت في احتشامها بلقيسا
ألبسوها من الحديد وشاحاً فتهادت على العباب عروسا

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٣٠ (٢) ديوان الرصافي جـ ١ ص ١٣١

ولقد كانت الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤ وحياً لكثير من الشعراء. ومنهم ولي الدين يكن الذي يقول فيها (١) :

ضاقت ميادين القتا ل عن المضارب والخيام
وتدافعت لجج الدما ء تعبُّ أبحرها الطوامي
تمتد من وادٍ لوا دٍ في الفدافد والموامي
تسمو غواربها بها بين اضطراب وارتطام
فكانما الطوفان قد أوفى لميعاد قدام
من يطَّلب منه اعتصا ماً يمسِ من غير اعتصام
فتلفعت زهر المدا ئن بالدخان وبالضرام
وتواقعت من عزها آثار أسلاف عظام
فكأنها بين الربو ع وقد عفت بعض الرجام
جثثٌ على جثث علت مثل الأكام على الأكام
فيهنَّ أوصالٌ مزيَّلةٌ وأكبادٌ دوامي
في مشهد أهواله أهوالُ ساعات القيام
بين القنابل والقنا والموت مختلف المرامي
والجند دامية الظبي والخيل دامية الحوام
تسمو جباهٌ ثم تسفُلُ بين أمواج الزحام
متعرضات للحيا م ونعم أضحية الحمام

وللجميل صدقي الزهاوي شعر كثير في الحرب وويلاتها كمقطوعته « الحرب » ص ١١٢ من ديوانه. ومقطوعته الأخرى «مشهد من الحرب الكبرى» ص ١١٤ وغيرها. وكلها لا يخرج عن تصوير الحرب في أبشع صورها وأفظع مناظرها

وبعد فقد اشترك الشعر في إثارة الحروب قديماً. ورأيناه اليوم يتجه اتجاهاً مخلصاً الى الدعوة الى السلام لما عانى الناس من نكبات الحروب وما قاسوا من أهوالها. أتراه يفلح في دعوته، وينجح في وجهته ؟ ؟ حبذا لو صحت الأحلام !

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٥٠

سير الزمان

مستقبل الذهب

لفؤاد محمد شبل

١ — ظاهرة حشد الذهب في الولايات المتحدة
٢ — تقلقل الاحوال السياسية
٣ — الذهب تحديد سعره
٤ — العودة الى معيار الذهب
٥ — الذهب في الحياة الاقتصادية

الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها

لنقولا الحداد

مستقبل الذهب

لفؤاد محمد شبل
مفتش التموين بالاسكندرية

لم يكن اتخاذ بعض الأشياء واسطة للتبادل ناشئاً عن اتفاق عقد، وانما عن صفات خاصة تجمعت في هذه الاشياء، وحملت الناس على تفضيلها واتخاذها أساساً للتبادل. وأخذت هذه الوسائل تتطور بتطوُّر المدنية وتقدُّم الحياة الاقتصادية، حتى أصبح المعدنان النفيسان — الذهب والفضة — في الأزمنة الاخيرة أساس النقد لدى الشعوب المتحضرة، ثم أصبح الذهب أساساً والفضة تبعاً. ولقد لبث الذهب حيناً من الدهر يؤدي وظيفته في الحياة الاقتصادية على خير سبيل الى أن تعقدت هذه الحياة، وتشعبت أوجهها، وتباينت مظاهرها، وتشابكت مناحيها، فأصبح الذهب عاجزاً عن أن يقوم بمهمته الخطيرة في الحياة الاقتصادية

ولم تأخذ مسألة الذهب مكانها من الخطورة والأهمية. ولم تُثَر مشكلة المعدن الأصفر كأساس للقِيَم. ولم تتعدد الآراء بشأن مستقبله بقدر ما هو حاصل الآن. وتحمل الحرب الحاضرة بين طياتها بذور تفاقمها واستفحالها. بل ان هذه الحرب هي في الواقع عراك بين نظامين اقتصاديين مختلفين يضمّ احدهما دولاً تعتنق فكرة قيامه بوظيفته القديمة كمعيار للقيمة، وانه رمز الاستقرار ورسول الطمأنينة والسلام. والأخرى دولاً ترى الذهب أثراً بالياً من القرون الماضيات ومظهراً لا يتفق وتطوُّر الحياة الاقتصادية وما أصابها من تغيير وتبديل

وانا في هذا البحث سنحاول أن نلقي ضوءاً على تلك المشكلة يقرّبها للاذهان

١ — ﴿ العدول عن معيار الذهب ﴾ الأصل في معيار الذهب وجود نسبة ثابتة بين العملة والذهب. فالوحدة النقدية هي وزن من الذهب، وهذا الوزن له قوّة إبراء غير محدودة. وما جميع الوسائل النقدية المختلفة الموجودة في التداول الاّ ممثلة لها. هذا هو معيار الذهب في جوهره. وأبسط مظاهره. وقد يختفي الذهب من التداول كما هو الحال في نظام الصرف بالسبائك، بيد أن الذهب لا يزال روح النظام النقدي والقوة النابضة لجميع أنواع النقود التي يتكوّن منها، اذ ينص قانون الدولة النقدي عادةً على شراء البنك المركزي أو دار الضرب الذهبَ بسعر محدد وبكميات خاصة. وهذه التبعية المتبادلة بين الذهب والعملة تقوم على أساس توفُّر نسبةٍ ثابتة من الذهب بسعر معيّن، وبغير وجود هذا الأساس الثابت لا يوجد ثمّة معيار ذهب

وكان تعميم الأخذ بنظام معيار الذهب ما جعل الذهب أساس الأنظمة النقدية في جميع أنحاء العالم . فكان لكل عملة وزنٌ قانونيٌّ من الذهب . وكان مقدار الذهب في كل عملة هو المحدد لنسبة صرف عملة بأخرى . وكان للذهب قيمة شرائية في جميع البلاد التي تستخدمه . وهذه القوة الشرائية مرتبطة أشد الارتباط بمستوى الأثمان العام في كل دولة . فاذا حدث في دولة ما ان أصبح الميزان التجاري موافقاً لها فان الذهب يؤمها بالقدر اللازم لسدّ الثغرة الحادثة بين الصادر والوارد ، واذا زاد الوارد عن الصادر في دولة لا يلبث الذهب أن ينحسر عنها فيتعدل مستوى الأثمان ويشجع هذا الهبوط الدول الاخرى على الشراء منها وبالتالي يتعدل الميزان التجاري في مصلحتها ويؤمها الذهب . ويعزّز هذا ما تلجأ اليه الدولة من جعل سعر القطع فيها أعلى منه في الخارج فيشجع هذا رؤوس الأموال الأجنبية على الانسياب اليها . فصيرورة الميزان التجاري في صالح الدولة وتدفق رؤوس الأموال لتستثمر فيها بتأثير ارتفاع سعر القطع كفيلان بتعديل مستوى الأثمان داخلها حتى يغدو متجانساً مع مستوى الأثمان في خارجها . ولم يكن ليحدُّ من سير نظام الذهب كاملاً على هذا النسق سوى ما كانت تضعه الدول المختلفة من حواجز جمركية على تصدير أو استيراد بعض السلع أو منحها تسهيلات لبعض السلع الأخرى الى غير هذا من العوامل المحلية . على أن النظام في جوهره كان يؤتي ثماره و يحدث نتائجه العامة

ولقد كان في مقدمة أحداث الحرب العظمى الماضية ، تخلُّص الدولة تلو الأخرى من نظام معيار الذهب لما تطلبته الحرب من نفقات هائلة دفعت الحكومات المختلفة على تقرير السعر الالزامي للاوراق النقدية . وصحب هذا تحريم تصدير الذهب لاسيما وإنهُ كان يخشى اندفاع الجمهور نحو البنوك للتخلص من الأوراق النقدية التي في حوزته . وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أخذ العالم يفكر في وصل حاضره بماضيه وفي استعادة طمأنينته ورخائه في ظل معيار الذهب . وفعلاً انصرفت كل دولة الى تحقيق هذا ، ولم تمض عشرة اعوام الاّ واستطاع العالم رأب ما تصدّع من بنيانه ، فاستردَّ الذهب عرشه المفقود وقرَّ في الأذهان أن شؤون العالم النقدية قد عاد اليها الثبات والاستقرار . بيد ان عودة العالم الى الذهب لم تتخذ سبيلها القديم . فمن الدول من أعاد قابلية صرف النقود الورقية بالذهب على أساس القيمة الاصلية (كانجلترا) ومنها من بلغ تدهور نقودها الورقية (كدول أوربا الوسطى) حدّاً دفعها الى الغائها وايجاد نوع جديد من النقود المعدنية والورقية . ومنها أخيراً ما أعاد صرف النقود الورقية بالذهب على أساس أقل من القيمة الأصلية لوحدة النقود القديمة (كفرنسا وايطاليا) . وانهُ وان كان الذهب قد استردَّ سلطانه على النظم النقدية الاّ انهُ من بين ثنايا ما اتخذتهُ الدول المختلفة من السياسات النقدية بعد الحرب يمكننا ان نلمح بوادر الخطر على نظام المعدن الأصفر

فلقد نشأ عن الديون بين الحكومات وهي ديون الحرب والتعويضات سوء توزيع الذهب في العالم وتركّزه في دولتين كبيرتين دائنتين هما فرنسا والولايات المتحدة فنجم عن ذلك ندرة الذهب في الممالك الأخرى وارتفاع ثمنه ونقص ثمن السلع تبعاً لذلك ، فحفز هذا الأمر الدول الأخرى على الحدّ من وارداتها بمعادلة ميزانها الحسابي من جهة وللحيلولة دون انهيار نظمها النقدية من جهة أخرى . ثم كانت الأزمات المالية والاقتصادية وتتابع المشكلات السياسية فعجز معها الذهب عن ان يقوم بمهمته في الحياة الاقتصادية . فاضطرت الحوادث انجلترا الى الخروج عن معيار الذهب في عام ١٩٣١ وتبعها في ذلك كتلة الاسترليني (الممتلكات البريطانية المستقلة والهند وبلاد اسكندناوة ومصر والعراق وتركيا واليابان) وتلتها هولندا منذ عام ١٩٣٦ وفرنسا منذ عام ١٩٣٦ وبصفة خاصة في عام ١٩٣٧ بعد ان عدلت عن المعدلات التي فرضها قانون أول أكتوبر ١٩٣٦ معيّناً حدّي تغيّر العملة . وانهُ وان كان قانون ٢٧/٩/١٩٣٦ قد عين نسبة ما يحتويهِ الفرنك السويسري الذهبي بـ١٩٠ — ٢١١ مليجرام من الذهب الخالص إلاّ ان العلاقة بين الفرنك وبين الذهب ليست ثابتة كما يبدو . وهذا ينافي شرط معيار الذهب وكذلك الحال بالنسبة للولايات المتحدة ، فانها وان كانت قد عينت سعر أوقية الذهب الخالص بخمسة وثلاثين دولاراً الاّ أن القانون أعطى الرئيس سلطة خفض هذا السعر أو رفعهِ حسب الأحوال بين حدّي ٤٥ و ٣٤ دولاراً و٣٤ و ٤١ دولاراً . أما المانيا قبل الحرب فانها كانت تسير على معيار الذهب من الوجهة القانونية (وتجاريها في ذلك الدول التي تقيد التبادل) إلاّ انها لم تكن تسير فعلاً على مقتضاه،طالما ان حرية انتقال الذهب ورؤوس الأموال لم تكن مكفولة

فمشكلة الذهب اذاً هي في الواقع مشكلة سوء توزيعهِ وحشده في الولايات المتحدة الأميركية فعجز الذهب عن أن يقوم بمهمتهِ الخطيرة في الحياة الاقتصادية على النحو القديم المعروف مما سنبينهُ فيما بعد

٢ — ﴿ظاهرة حشد الذهب في الولايات المتحدة﴾ في عام ١٩٢٣ بلغت قيمة الأرصدة النقدية المنظورة للعالم ٥ ر ٨ بليون دولار تملك الولايات المتحدة منها حوالى الأربعة بلايين أو ٤٥ ٪ منها . وفي مستهل عام ١٩٢٩ بلغت قيمة الأرصدة النقدية الذهبية ١٨ بليون دولار وفي آخر عام ١٩٣٨ كانت تلك القيمة ٢٧ بليون دولار وبعبارة أخرى أضاف العالم في بحر عشرة أعوام الى رصيده نصف ما كان لديهِ قبل ذلك . وفي هذه المدة ارتفعت قيمة الاحتياطات الذهبية مقوّمة بالدولارات والتي تحوزها الحكومة والبنوك المركزية الأميركية بنسبة ٢٥٠ ٪ مما كانت عليهِ في عام ١٩٢٩

أما إنتاج العالم من المعدن فيطرد في الزيادة ويبلغ ١٣٠٠٠ مليون دولار سنويًّا ، ولقد

صاحبت زيادة الانتاج الذهب زيادة كبيرة جداً في المخزون منهُ في الولايات المتحدة ، فبلغت مقتنيات ٥٢ دولة الى نهاية دسمبر سنة ١٩٣٩ ماقيمتهُ ٢٥٧٢٧ مليون دولار، نصيب أميركا منهُ ١٧٦٤٤ مليون دولار . والزيادة في عام ١٩٣٩ بمقارنتها بعام ١٩٣٣ ملحوظة جداً وأعظم تماماً من الزيادة في العرض العالمي للذهب . ولقد تكوَّنت من الذهب المتدفق أرصدة فائضة في البنوك الأميركية بلغت في ٢٧ دسمبر سنة (١٩٣٩) ٥٠٤٦ مليون دولار . ولن تقل الأرصدة الفائضة اليوم عن ٦٠٠٠ مليون دولار. والذهب الوارد الى الولايات المتحدة يظل فيها دون أن يكون له من الأثر مايحدث لو كان معيار الذهب الدولي يتخذ سبيله القديم في الحياة الاقتصادية فلم يتبع تدفق الذهب تعديل في مستوى الأثمان وبذلك لم يجد التدفق أي عائق أمامهُ

وتظهر لنا الاحصاءات المبينة لتطوُّر الاحتياطي الذهبي للولايات المتحدة أنهُ بلغ ٦٧٩٣ مليون دولار آخر عام ١٩٣٣ وصعد الى ١٢٧٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٧ وبلغ ٥٠٠٠ مليون دولار عام ١٩٣٨

وتظهر الاحصاءات أن إنتاج الذهب في الخمس سنوات ١٩٣٤ — ١٩٣٨ بلغ ما قيمتهُ ٥٨٠٠ مليون دولار . وفي نفس المدة بلغت مبيعات مكتنزي الذهب ٦٥٠ مليون دولاراً ، ومن هذا يظهر أن الولايات المتحدة في خلال الخمس سنوات السالفة الذكر قد استوعبت ، ليس كل الذهب المستخرج في هذه المدة ومبيعات المكتنزين خلالها فحسب ، ولكنها استولت أيضاً على جانب عظيم من الأرصدة النقدية للأمم الأخرى . ولما كانت لندن تعتبر السوق المركزية للذهب ، فمن الجدير بالملاحظة أنهُ منذ عام ١٩٣٤ كانت حركات الذهب بين انكلترا والولايات المتحدة من جانب واحد أي من انكلترا الى الولايات المتحدة لا كما كانت الحال قبلاً من تبادلها بين البلدين وفقاً للأحوال الاقتصادية والاعتبارات التجارية البحتة

ويعتبر الوارد في عام ١٩٣٩ أشدّ حركات تدفُّق الذهب الى الولايات المتحدة منذ تولى النازي أزمّة الحكم في المانيا حتى نشوب الحرب الحاضرة . اذ بلغت قيمة الوارد ٣٥٧٤ مليون دولار بزيادة ٨١ ٪ عن قيمة الوارد اليها في عام ١٩٣٨ . وتجلّى هذا التدفق بصفة خاصة في مراحل ثلاث : الأولى في سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨ خلال أزمة ميونخ ، وابتدأت الثانية في مارس ١٩٣٩ عند ما احتل الألمان براغ ، وبدأت الثالثة في أغسطس ١٩٣٩ وظلت في اطراد حتى قيام الحرب وبعدها . وبذا بلغ مجموع الذهب المتدفق الى الولايات المتحدة من يناير ١٩٣٤ حتى اغسطس ١٩٣٩ أكثر من ٩٠٠٠ مليون دولار . كما بلغ صافي رؤوس الأموال التي أمّت الولايات المتحدة ٥٣٠٠ مليون دولار، ثلثها يمثل أموالاً أميركية عادت الى وطنها ، وثلثاها رؤوس أموال أجنبية خاصة أُرسلت للولايات المتحدة لشراء اوراق مالية اميركية أو لتودع في مصارفها . ومن

لجدير بالذكر ان وارد الولايات المتحدة من الذهب في عام ١٩٣٩ بلغت أكثر من ٢ ½ مرة الانتاج العالمي منه في هذه السنة

وفيما يلي بيان بمودعات الدول المختلفة من الذهب في الولايات المتحدة وما تملكه من الأوراق الأميركية حتى اغسطس ١٩٣٩ ونصيب الذهب من مودعاتها بين قوسين والقيمة بمليون دولار، بريطانيا العظمى ٤٢٣٠ (٢٠٠٠) — فرنسا ٣٥٨٠ (٣٠٠٠) — كندا ١٦٣٠ (٢١٥) — بلاد فرنسية وبريطانية أخرى (٥٤٠) — المانيا ١٦٠ (١٥٠) — ايطاليا ٢٠٠ (١٩٠) — هولاندا ١٧٨٠ (٧٧٠) — سويسرا ١٤٢٠ (٥٩٠) — روسيا ١٠٠٠ (١٠٠٠) — أقطار اوربية أخرى ٢٨٧٠ (٢١٩٠) — اميركا اللاتينية ١٠٠٠ (٦٦٠) — الشرق الأقصى وغيره ١٢٩٠ (٣٧٥). المجموع ١٩٨٠٠ (١١٦٨٠). وسنناقش فيما يلي عوامل هذا التدفق وعوامله

٣ — ﴿ موافقة ميزان اميركا الحسابي لها وأثر ذلك على تدفق الذهب اليها ﴾ يرى كثير من الباحثين ان تدفق الذهب الى الولايات المتحدة يعتبر نتيجة لخفض الدولار. بيد انهُ يلاحظ على هذا الرأي ان كثيراً من عملات البلاد الأخرى قد خفضت عقب الحرب الماضية وأنه منذ عام ١٩٣١ ارتفع سعر الذهب بالنسبة لعملات الدول الأخرى المختلفة. وبالتالي لا يمكن تفسير ظاهرة التدفق بالاختلاف الموجود بين الأثمان في الدول المختلفة. فلو كانت الولايات المتحدة تبذل جزءاً أكبر من نقدها للحصول على الذهب أكثر منهُ للحصول على السلع لكان من ذلك حصول الولايات المتحدة على الذهب وحصول الأقطار الأخرى على السلع الأميركية وهذا ما يأتي بهبوط أثمان البضائع في الولايات المتحدة أكثر منهُ في البلاد الأخرى. وليس أدل على بطلان هذا الرأي من أن تدفق الذهب لم يصاحبه إفراط مماثل في الصادر من الولايات المتحدة الى الخارج بل ان مدى رجحان الميزان الحسابي في المدة ١٩٣٤—١٩٣٨ كان في هبوط

بيد انِ هذا لا ينفي تأثير موافقة ميزان اميركا الحسابي على تدفق الذهب اليها. ففي عام ١٩٣٨ مثلا جاوزت الصادرات الواردات بقيمة ٩٥٦ مليون دولار، وباحتساب الواردات غير المنظورة تصبح الزيادة ٨٠٢ مليون دولار. ولقد بلغ صافي الوارد من الذهب في هذه السنة ١٦٤٠ مليون دولار. فاذا ما قارنا هذه الأرقام بما يقابلها من ارقام ١٩٢٩ وجدناها ٨٤١ مليون دولار و ١٢٠ مليون دولار على التوالي

وفي الأعوام الأخيرة اشتدَّ طلب العالم على منتجات الولايات المتحدة فاشتدَّت حركة صادراتها وبصفة خاصة بعد نشوب الحرب وانصراف الدول المتحاربة لانتاج معدَّاتها وما تبع هذا من تقلُّص صادراتها وصيرورة الميزان التجاري في غير مصلحتها كما سنبين في موضع آخر

وثمة حقيقة أخرى وهي ان الولايات المتحدة كانت تعتبر بعد الحرب الماضية قطراً مقرضاً

كبيراً . على ان الحال تغيرت في الأعوام الأخيرة فأصبحت الولايات المتحدة مدينة سنويًّا بمبلغ صافٍ كبير بلغ ٣٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٤ و١٥٣٦ في عام ١٩٣٥ و١١٦٩ في عام ١٩٣٦ و١١٨٧ مليون دولار في عام ١٩٣٧ و ١٩٧٤ مليون دولار في عام ١٩٣٨ ومن هذا يظهر مدى الارتباط الشديد بين واردات الولايات المتحدة من الذهب والزيادة الحالية في مديونيتها للخارج . وهذه العلاقة شاذة الى أبعد حد ، لا تتفق مع الأوضاع الطبيعية المعروفة اذ كان صافي الوارد من الذهب لبلدٍ ما هو في الأوقات العادية نتيجة معادلة لما تدينهُ للخارج بسبب موافقة ميزانه الحسابي له

وكان تملُّك الذهب أمراً عرضيًّا يسير وفق حاجات التجارة والاقتصاد . فعوضاً عن أن تكون الولايات المتحدة اذاً قطراً مقرضاً كبيراً — كما كانت الحال منذ عام ١٩١٤ — اضطرتها الظروف الى ان يكون حسابها مديناً سنويًّا بمبلغ كبير . فهي لا تستورد الذهب بدافع من حاجتها اليه ، أي مقابل ما تؤديه من خدمات وما تصدره من بضائع ، ولكن بسبب الحالة الدولية التي حفزت الأفراد الاجانب على استبدال ما في حوزتهم من ذهب بدولارات . وهكذا غدت لديها ثروة قليلة النفع لها ، ثروة قيمتها في المستقبل يكتنفها الشك . وليس أدلّ على ذلك من ان صحافيًّا أميركيًّا كان قد سأل المستر نورمان محافظ بنك انكلترا عما اذا كان يأمل في عودة الذهب من الولايات المتحدة فأجاب إجابة ذات مغزى عظيم : « لقد عانينا ما فيه الكفاية من التعب لاستخراجه من الأرض »

فواردات الولايات المتحدة اذاً من الذهب في الزمن الاخير لا ترجع الى رجحان كفة الميزان الحسابي ولا ترجع بصفة خاصة الى مدفوعات تؤديها الدول الاخرى نظير قروض أقرضتها الولايات المتحدة لها

والوارد من الذهب اليها يمثل في الواقع ديوناً عليها كما سيتبين فيما بعد . وهي تستورده لا بمحض ارادتها ولكن وفقاً لإرادة البائعين الأجانب

٤ — « أثر تقلقل الأحوال السياسية على التجاء الذهب ورؤوس الأموال لأميركا » — الخوف في الواقع هو الذي حفز الدول الأخرى على الاقبال على تصدير الذهب الى الولايات المتحدة بيد ان هذا وحده لا يكفي لتعليل تدفق الذهب الى هذه البلاد ، فلو صاحب حركة تدفق الذهب تعديلٌ في مستوى الأثمان لامتنع التدفق أو على الأقل خفت حدته . والواقع كان تعيين الولايات المتحدة سعراً ثابتاً للذهب سبباً في إبطال تأثير العوامل الاقتصادية المصححة التي كانت تعمل في الماضي على إعادة التوازن بين القوى الاقتصادية المختلفة فعند ما كانت العملات مرتبطة بالذهب سرعان ما كان تغيُّر التوزيع الدولي للذهب يجد صداه في البلاد الأخرى فترتفع الأثمان

او تنخفض تبعاً للاحوال ولهذا تأثيره على حركات التجارة الدولية ، وبالتالي تصحيح حركات الذهب وتعديلها تعديلاً يتفق مع مطالب التجارة الدولية لكل دولة . وهكذا لم تكن ثمة دولة تحوز من الذهب قدراً أكثر من حاجتها

وفي نظام معيار الذهب الدولي اذا ما زاد الاقبال على الدولارات والاستعاضة بها عن الذهب فانه يتبع هذا هبوط الأثمان في الدول التي أتى منها الذهب وهبوط قوة الدولار الشرائية داخل الولايات المتحدة أي ارتفاع أثمان السلع منها فينجم عن هذا تثبيط تجارة الصادر الى ان يتوقف ورود الذهب . بيد ان الحال تختلف في الوقت الحاضر عما كانت عليه في ظل النظام السالف الذكر . فنظام معيار الذهب لم يعد له وجود اللهم الا في الولايات المتحدة بل لا يوجد فيها سوى مظهره الخارجي ما دام الذهب في بقية أنحاء العالم قد بتر بتراً تاماً عن هيكل الأثمان. وكان من جراء هجر العالم لمعيار الذهب ان أصبحت حركاته وليست لها تأثيراتها السابقة وبطلت وظيفة المعدن كمنظم للعلاقات الاقتصادية الدولية ، وهكذا اذا ما تدفق الذهب على بلد ما فلن يؤثر في اقتصاده القومي تأثيره السابق ، ولن يجد هذا التدفق ما يعترض سبيله

وكان طبيعياً ان يعمل الذهب الوارد على رفع مستوى الأسعار داخل الولايات المتحدة لو ظل الذهب العملة الدولية ، بيد ان ما حدث يخالف هذا اذا لم يكن للذهب تأثير ما على مستوى الأسعار مثله في ذلك مثل أي سلعة أخرى . ولقد صاحب هبوط سعر الصرف — نتيجة للذهب الوارد — اتجاه الصادرات الأميركية الى الارتفاع بنسبة أعظم من واردات البضائع والخدمات

ويرد هذا الى أن تعديل سعر الصرف يجعل من الأسهل الشراء من الولايات المتحدة وأعظم صعوبة للأميركيين الشراء من الخارج . وهذا هو عكس النتيجة التي يتوصل اليها في نظام معيار الذهب الدولي الذي كانت واردات الذهب فيه يصحبها عادة تعديل في مستوى الأسعار يحدث هبوطاً في معدل الصادرات عن معدل الواردات في البلد الذي يتدفق الذهب اليه . وعلى هذا ليس ثمة اليوم عوامل تحد من تدفق الذهب فحسب ، بل ان ثمة عوامل تزيد نشاط هذا التدفق وتقويه

ولقد دأبت بعض الأقطار بين المانيا وايطاليا قبل هذه الحرب على تقويم الوارد بأعلى من الصادر وعلى اعتبار الصادرات السبيل الفرد لتزويدها بما تحتاج اليه من السلع المستوردة. وهذا في الواقع أثر من آثار الاستعداد للحرب والتهيؤ لها اقتصادياً . ومن ثم كان شراء الذهب عند هذه الأقطار عملاً غير مجذ. بل نراها ترسل ذهبها الى الولايات المتحدة لتعزيز أمر حصولها على المواد الأولية وليكون الثمن المتحصل من بيع ذهبها وصادراتها عاملاً في مدها بالمواد الخام اللازمة لها في استعدادها للحرب . ولما كان الذهب لم يعد أساساً للنقد فقد غدا وجوده فيها غير

لازم لها بالمرة وأصبحت عملية شرائه عند هذه الدول عبثاً على خزانتها لامبرّر لها . وهكذا قوى ميلها الى التخلص من ذهبها واقتدى بها كثير من الحكومات الأخرى فأصبحت هي الأخرى تتجه نحو إنقاص احتياطيها الذهبي أكثر من اتجاهها نحو تعزيزه. وهذا التحليل يقودنا الى الفكرة الآتية ، وهي أن الاستعداد للحرب والتهيؤ لها قد جرَّ الى أن أصبحت الدول تميل الى رفع قيمة صرف عملاتها بالنسبة للدولار تسهيلاً لورود البضائع الأميركية اليها لاسيما المواد الأولية ضالتها المنشودة

نخلص مما تقدم الى القول بانهُ لا يمكن انتظار وضع الحكومات الأخرى عقبات أمام حركة تدفق الذهب الى الولايات المتحدة كما لا يتوقع ضعف هذه الحركة الى أن تستوعب مخزون العالم من المعدن الأصفر فضلاً عن انتاج المناجم

٥ — ﴿ تحديد سعر ثابت للذهب وعلاقته بالتدقيق ﴾ في يناير سنة ١٩٣٤ صرّحت وزارة خزانة الولايات المتحدة باستعدادها لشراء وبيع الذهب بسعر ثابت ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب العالمي،وسنناقش هنا ما ترتب على فرض هذا السعر الثابت للذهب من آثار وما نتج عنهُ من شد أزر نزعة التجاء الذهب والأموال الى اميركا . ففي عام ١٩٣٣ خرجت الولايات المتحدة عن معيار الذهب. حالة فريدة في بابها، بلد يخرج عن معيار الذهب في الوقت الذي يتوفر له حوالي نصف احتياطي العالم منهُ في ذلك الوقت ! والسبب الذي دفع الولايات المتحدة الى الخروج عنه في عام ١٩٣٣ يردُّ في الواقع الى خشيتها منافسة بريطانيا العظمى السوق الدولية بعد ايقافها شرط معيار الذهب في عام ١٩٣١ وما عقبه من تعزيز صادراتها . بيد أنهُ يلاحظ أن بريطانيا العظمى قد عمدت الى هذا الاجراء بعد ما هددت الحوادث رصيدها الذهبي ولا دخل للمنافسة التجارية فيه. هذا وقد قررت الولايات المتحدة العودة الى حظيرة الذهب في ٣١ يناير سنة ١٩٣٤ بعد تخفيضها قيمة الدولار بحوالي٦.٥٩٪ من قيمته السابقة وتطبيقاً لمبدأ الاحتفاظ بسعر ثابت للذهب لا تمتنع الولايات المتحدة عن شراء اية كمية تعرض عليها من المعدن ولا ترفض بيعه لمصدريه . وهذا يجعل الولايات المتحدة عاجزة عن السيطرة على حركات الذهب . ومن ثمَّ فان محاولة الإشراف على أسعار الصرف تعتبر في الواقع عبثاً لافائدة تجنى من ورائه . فلو ارتأت السلطات النقدية الأميركية رفع قيمة صرف الدولار وبيع العملات الأجنبية لديها بالتالي فان في مكنة السلطات النقدية الاجنبية شلّ هذا الاجراء بواسطة الاقبال على شراء العملات المباعة بما يتحصل لها من دولارات ناجمة عن بيع الذهب للولايات المتحدة . وكذلك الحال لو رغبت السلطات النقدية في الولايات المتحدة في خفض قيمة صرف الدولار وشراء العملات الاجنبية ففي مكنة السلطات النقدية الأجنبية إبطال مفعول هذا الاجراء

عن طريق زيادة إصدار أوراق البنكنوت وبيعها وتلك وسيلة مباشرة يمكن ممارستها الى غير ماحد. والواقع انه قد ذهب الزمن الذي كان لسعر الصرف فيه تأثير حاسم على حركات الذهب، ولو لم تعمد الولايات المتحدة الى تعيين سعر ثابت للذهب لما بلغت ظاهرة الأموال اللاجئة اليها ما بلغته من قوّة وعنف ولكان نتيجة الالتجاء الى الدولار رفع سعر صرف الدولار بالنسبة للعملات اللاجئة الى مستوى يحد من قوة التدفق

وطالما أن الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها منح ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب تقدم اليها فان تصدير الذهب اليها ينشىء حقوقاً فيها للمصدرين الأجانب على الدولار الأميركي. والعكس غير صحيح. بمعنى أن الولايات المتحدة لن يتهيأ لها استبدال الذهب بالعملات الأجنبية الأخرى فلم تبدِ حكومة من الحكومات الأخرى استعدادها لتقبل الذهب بسعر معين. والعادة في غياب حركات الذهب — أن يكون تخلص الناس من عملة ما بدافع الخوف باعثاً على رخص هذه العملة، ومن ثمّ تغدو عملية الالتجاء في صالح الدول الأخرى اذ تبيع بضائعها رخيصة الى الدول الأخرى. وهذا الرخص يجرُ وراءه تدفق بضائعها تدفقاً قد يضير مرافقها الاقتصادية. وهكذا تحمل هذه العملية بين ثناياها جزاءها للافراد والأقطار التي ترسل أموالها الى الخارج من جهة وللأقطار التي تقبل التجاء هذه الأموال اليها. وهذا التحليل لا يصدق الآن على الذهب فان تصديره الى الولايات المتحدة لا يحدث النتيجة السالفة الذكر. فالمصدرون في هذه الحالة لا يبيعون الولايات المتحدة عملاتهم الأهلية رخيصة ولكنهم في الواقع يشترون بسعر ثابت عملة نقدية أميركية ويدفعون في هذا الشراء الذهب الذي لم يعد بعد جزءاً من عملاتهم والذي عليهم وحدهم تتوقف مسألة استرجاعهم له من عدمه

فهل كانت اميركا على حق في اعادة ربط عملتها بالذهب في عام ١٩٣٤ في الوقت الذي هجرت فيه البلاد الأخرى قاعدة الذهب. وهل كان من سداد الرأي في وقت أضحى العالم فيه بمنأى عن قاعدة الذهب أن تظل الولايات المتحدة متبعة هذا النظام وأن تبدي استعدادها لشراء كل ما يعرض منهُ بسعر عالٍ جدّاً؟ يرى بعض الباحثين أنهُ يوجد في الوقت الحاضر سوء توازن خطير بين نفقة انتاج الذهب الواطئة وبين سعر بيعه العالي. ومن رأيهم أن هذا السعر من شأنه استمرار حالة انسياب الذهب الى أميركا. فلو لم تعين الولايات المتحدة سعراً ثابتاً للذهب لتيسر إنقاص سعر الذهب بالنسبة للدولار كما تطلبت الأحوال ذلك. أما الآن فان القيام بهذا الأمر بعد ان استمر هذا السعر ردحاً من الزمن وتأصلت جذوره في الحياة الاقتصادية يكلف الولايات المتحدة والعالم ثمناً فادحاً

ومن تحصيل الحاصل القول بتحويل الذهب الى دولارات حلاً للموقف طالما أن سعر

الذهب في الخارج بالدولارات لن يتعدى سعره الحالي الاّ بارتكاب أحد أمرين أحدهما من زيادة سعر الذهب أو إبطال حرية تصدير المعدن . فان أي حركة في أسعار الصرف سيتبعها بلا ريب تغيير مماثل في سعر الذهب بالعملات الاجنبية وتحويل الذهب الى دولارات يحدث نتيجته الطبيعية اي التضخم النقدي وما يتبعهُ من هبوط قيمة الدولار الحقيقية (أي قوته الشرائية). وبما ان الذهب مرتبط بالدولار ومقوّم به فستهبط قيمته الحقيقية كذلك بنقص النسبة . واذا ما امتنعت الولايات المتحدة عن شراء الذهب فان قيمته بالنسبة للدولار قد تذهب في هبوطها الى حدّ أبعد من هبوطه ويعزّز هذا الرأي ما يجنيه حامل الأوراق المالية المقوّمة بالدولار من ربح لا يتحقق له بحيازة الذهب . وهذه هي الحال التي عرضت للدول التي لديها الذهب فهي ترغب عنهُ لأسباب منها ان الدولار وسيلة للحصول على البضائع الأميركية التي هي في مسيس الحاجة اليها، ولأن ملكيتها لأوراق مالية مقوّمة بالدولار يغلّ لها دخلاً لن يتأتى لها باستحوازها على الذهب فضلاً عن ان تخزين الذهب يكلفها نفقات كبيرة كما تتعرض لفقده في حالة اجتياح العدو أراضيها كما حدث لفرنسا وهولندا وبلجيكا والنرويج . الخ

والواقع انه اذا كانت دول أوربا — خاصة — تحرص على الاستحواذ على الذهب فلانهُ وسيلة للحصول على الدولار عن طريق بيعه بسعر ٣٥ دولار للأوقية السعر الذي حددتهُ

٦ — ﴿ مسألة العودة الى معيار الذهب ﴾ من الواضح ان مسألة العودة الى نظام معيار الذهب الدولي أمرٌ بعيد جدًّا . وليست الأفكار خارج الولايات المتحدة مستعدة لتقبل هذا الاجراء كما ان الظروف والأحوال الحاضرة لا تتيح امكان هذه العودة . فاذا كانت الأحوال العالمية في عام ١٩٣١ وما بعده قد اقتضت الخروج على معيار الذهب فان العالم يجتاز دوراً من أشد أدوار تاريخه خطورة وفترة أعظم شذوذاً من الفترة السالفة الذكر . وبعبارة أخرى فان استئناف الذهب وظيفته في الحياة الاقتصادية أمرٌ يعتبر ضرباً من المستحيلات في ظلّ الظروف التي بيّناها. وان استمرار السياسة التي تجري عليها الولايات المتحدة اليوم من تعيين سعر ثابت لشراء الذهب يلقي على هذه البلاد عبئاً جسيماً يكلفها سنويًّا حوالي المليار ونصف المليار دولاراً . ولا يتوقع توقف الذهب عن التدفق اليها فان سعر ٣٥ دولاراً للأوقية يشجع منتجيه على مواصلة زيادة الانتاج . فان شاءت الولايات المتحدة التخلص من هذا الموقف بالالتجاء الى التضخم وبالتالي الغاء السعر المحدد الثابت للذهب وترك المعدن تحدد قيمته العوامل الاقتصادية البحتة ، فسيؤثر هذا التخفيض على البلاد المنتجة للذهب لاسيما الكبيرة منها . فهذا الاجراء يعتبر بمثابة كارثة تحلّ بها ويحتمل جدًّا ان يكون لهذا الاجراء صداه على الاقتصاد القومي للولايات المتحدة نفسها فضلاً عن ان الذهب الباقي في أنحاء العالم سيهرع اليها اتقاء حدوث تخفيض جديد . ويصطدم اجراء

التخفيض باعتراض خطير جداً ، فتخفيض دولار في سعر أوقية الذهب معناه خسارة قيمتها ٤٣٠ مليون دولار من القيمة الأسمية في السوق المخزون الذهبي الذي تملكه الولايات المتحدة اليوم . ولو ترك الذهب يصل الى ٢٠٫٦٧ دولار للأوقية (سعر دار الضرب القديم) — وليس هناك ما يمنعهُ من الانحدار الى أقل من هذا المستوى لو ترك وشأنه — لبلغت خسارة الولايات المتحدة في مخزونها الذهبي الحالي حوالي الستة بلايين دولار ، وهذه الخسارة تعادل ضعف الربح الذي حققتهُ للولايات المتحدة عملية إعادة التقويم في عام ١٩٣٣ — ١٩٣٤ . فمبلغ الستة بلايين هذا كما يبدو أعظم من العبء الذي تتحمله الولايات المتحدة اليوم من جراء شراء الذهب (١½ بليون دولار سنويًا) . وتخفيض قيمة الذهب لن يتمّ الاّ بزيادة نسبة غطاء الذهب في الدولار ، إجراء يكون له أوخم العواقب على الاقتصاد الاميركي . ففي سنة ١٩٣٧ زيدت نسبة الغطاء الذهبي بمقدار ٥ ٪ فأضرّ هذا بالمصدرين كثيراً فماذا يحدث لتجارة الصادر لو بلغت هذه النسبة بنحو ٤٠ ٪

٧ — ﴿ وظائف الذهب اليوم في الحياة الاقتصادية ﴾ الآن وقد استعرضنا مركز الذهب يدور بخلدنا السؤال الآتي عن وظيفة الذهب اليوم وعن الدور الذي يشغله في الحياة الاقتصادية في الوقت الحاضر . أما عن وظائفه القديمة المعروفة فلم يبقَ له شيء منها تقريباً . فلم يعد الذهب يستخدم مسكوكات أو سبائك تستعمل غطاء للاوراق النقدية ، وقد انهارت وظيفته كمنظم لعرض النقود . أما اتخاذه أداةً لتسوية المدفوعات الدولية فقد ضمر شأنها وغدا مصيرها الى الفناء . فان حركات الذهب تتجه اتجاهاً واحداً وهي لاتحدث — كما كانت فيما مضى — لتسوية الالتزامات الدولية بل انها اليوم تعتبر في الواقع وسيلة لانشاء التزامات جديدة كما تبيّنا في موضع سابق . فليس ثمّة اليوم صادرات وواردات للمعدن تنظماً لعرض النقود بل غدا المعدن وسيلة لتهريب رؤوس الأموال من بلدٍ الى بلد آخر بدافع الخوف والشك في مستقبله

والواقع ان كان ثمّة فائدة للمعدن اليوم فهي درّه الربح على منتجيه ومكتنزي المعدن الذين ينتفعون اليوم بالسعر العاليَ الذي تمنحه أميركا . أما عن اتخاذ الذهب كأساس لأرصدة تثبيت الصرف فهذا ما أصبحت الدول المختلفة تستبدلهُ بالدولار

وأخيراً يمكننا ان نقرّر ان الدولار هو الذي يحدد اليوم قيمة الذهب لا العكس . ومن هذا يتبين ان ربط الدولار بالذهب هو في الواقع أمر ظاهر تماماً اذ لا يملك الذهب البتّة التأثير على الدولار كما لو كانت الحال في نظام معيار الذهب الدولي

٨ — ﴿ أثر الحرب الحاضرة على مستقبل الذهب ﴾ بدّلت الحرب الحاضرة مظهر تدفق الذهب الى الولايات المتحدة فبعد ان كان التدفق يتجلى في التجاء رؤوس الأموال الى الولايات

المتحدة غدا تدفق الذهب الى الولايات المتحدة الى حدٍّ كبير نتيجة للعملات التجارية بينها وبين العالم . وكان من نتيجة فرض القيود الشديدة على خروج الأموال في البلاد المحاربة والمهددة بالاشتباك في الحرب ، ان حدَّ كثيراً تدفق رؤوس الأموال اليها . ويقابل هذا من الجهة الأخرى ان الحكومة البريطانية قامت بتمويل عدد من صناعات الحرب في الولايات المتحدة واستتبع هذا بيعها أكثر من الأوراق المالية المقوَّمة بالدولار فضلاً عن جانب كبير من ذهبها فيها. والواقع أنهُ بلغت مبيعات غير الأميركيين لما يملكونهُ من أوراق مالية اميركية في أميركا في عام ١٩٤٠ مبلغاً يفوق الوارد اليها من الأموال الجديدة في تلك السنة . وهذا يردُّ كما ذكرنا الى امتناع الأموال الأوربية عن ان تولي وجهها شطر الولايات المتحدة بسبب الرقابة على رؤوس الأموال من جهة والسيطرة الألمانية على الشطر الأكبر من الدول الأوربية من الجهة الاخرى. ولولا هذا لعظم شأن تدفق الوارد من الذهب الى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٠ أكثر مما كان عليه في عام ١٩٣٩ . ولما كان جلُّ رؤوس الأموال الأجنبية الموجودة في الولايات المتحدة خاصًّا ببلاد الحلفاء التي تستخدمه في شراء المؤن منها ، فكل محاولة لرفع الأثمان في أميركا يتبعها رفع الأسعار في الأقطار المحاربة . وحتى لو لم يتم هذا فان رفع الأسعار الأميركية لن يصدَّ الدول المحاربة عن استيراد البضائع الأميركية طالما انها أداةٌ لمواصلة الحرب

نخلص من ذلك الى القول بان العالم سيجابه بعد الحرب مشكلة للذهب شاذة في عنفها وحدَّتها ، ويبدو لنا انهُ سيصبح من الصعوبة بمكان عظيم على أي نقد في العالم ان يتمكن من وضع قدمه أمام الدولار الأميركي ومجابهته . فالصناعة الأميركية سيقوى مركزها خلال هذه الحرب وبالتالي تغدو أقدر وأعظم على المنافسة ، وسيولي العالم المحارب وجهه شطر أميركا لمدِّه بما يحتاج اليه لإعادة الإنعاش الى ربوعه ومدِّه بما يلزمه من معدَّات السلم . وكلما طال أمد الحرب كلما عظمت خسارة أوروبا وكلما اشتد الطلب على ما تبيعه أميركا ، حتى تصبح معادلة موازين المدفوعات أمراً من الصعوبة بمكان . وانه وإن كان استقرار أحوال العالم سيتيح عودة كثير من رؤوس الأموال الى أوروبا الاَّ ان هذا لن يتمَّ قبل مرور بضعة أعوام على عقد الهدنة وتلك حالة تضاف الى العوامل التجارية البحت التي أسلفنا ذكرها الخاصة بشدة الطلب على السلع الأميركية عقب الحرب. ويجب ان لا تغرب عن بالنا الحقيقة الآتية : — وهي انه من شأن استعادة التبادل حريَّته بعد الحرب التكالب على طلب الدولار ، ومباشرة هذا ستعمل على تدفق هذا القدر من الذهب الذي ما زال خارج الولايات المتحدة . وعلى ذلك لا مناص للعالم بعد الحرب من تقييد حرية التبادل نسبيًّا في فترة الانتقال على الأقل . ولكن لما كان دفع ثمن الواردات المنظورة وغير المنظورة أمراً مرغوباً فيه ، فيحتمل جدًّا ان تستمر حركة تدفق

رأس المال في ظل شيء من التقييد . فاذا حدث هذا فلا مناص من اتجاه العالم نحو خلق كتل نقدية قد تكون كتلة الدولار ، وكتلة الاسترليني مثلاً ، وستجري العمليات داخل نطاق كل كتلة حرة الى حد كبير ولكن ليس بين الكتلتين. وذلك وحده كما يبدو حل المشكلة غير مرغوب فيه ولكن لا مفر منه اذا ما سارت الحال على هذا المنوال

ولو حدث وتجمع كل ذهب العالم في الولايات المتحدة ولو انقسم العالم الى كتل نقدية وصحب هذا توازن العمليات المالية داخل كل كتلة نقدية وقيدت العمليات المالية بين بعض الكتل والبعض الآخر فهل يعين فقدان الذهب وظيفته كوسيط دولي للتسوية؟ وهنا يدور بخلدنا سؤالان من الضروري الرد عليهما : الاول هل ستكون هناك حاجة ملحة الى وسيط دولي للتسوية. وبالتالي هل سيظل الذهب المرشح الوحيد لهذا العمل ؟ من الصعوبة جداً تصور عالم — أو على الأقل عالم يسوده نفوذ الحلفاء — يمكنه الأستغناء عن وسيط للتسوية . وانه من المستحيل فعلاً فرض إشراف تام على التبادل. وهيمنة النازي على التبادل بما يضمه بين ثناياه من تعقيد لا نهاية له ومع ما يفرضه من عقاب صارم لم ينجح رغماً عن هذا كله في إنشاء التوازن التام في إنشاء المانيا الخارجية . وبعبارة أخرى لا ينتظر ولوج العالم هذا الباب وإقباله على هذا النظام

واذا كان لا بد من وجود وسيط دولي للأداء (تسوية المدفوعات) فهل يكون هو الذهب ؟ من الصعب تصور قيام شيء آخر غير الذهب بهذا الأمر . والواقع أننا إذ نتكلم عن مشكلة الذهب انما نعني مشكلة الدولار. فليست مسألة تجمع الذهب في الولايات المتحدة شيئاً خاصاً بالذهب وحده . فلو اتخذ صدف مثلاً وسيطاً في التسويات الدولية لأدت الظروف الحالية الى تجمع أربعة أخماس صدف العالم في الولايات المتحدة الاميركية. ورغماً عما يحمله نظام الذهب بين ثناياه من رزايا وما يلصق به من نقائص لا ريب فيها، فليس هناك بالتأكيد مادة أخرى غيره يمكن ان يقبلها العالم لأداء الديون دون أن تقام أمامها الرسوم الجمركية أو تحدد كميتها . أما القول بجعل الدولار نفسه يقوم بمهام الذهب فلا يمكن أن يقره العقل . فلا يمكن استخدام الدولارات لمواجهة عجز في الدولارات مثلاً . وفضلاً عن ذلك فإن هناك مصالح قوية لا يمكن الغض من شأنها يهمها الاحتفاظ بنظام الذهب الذي تعتمد قيمته كلية على استخدامه وسيطاً في النقد . والولايات المتحدة لن تتجاهل هذا الأمر كما ان الممتلكات البريطانية وروسيا لا توافق على خفض قيمة مادة تعتبر أعظم منتج لها

***

وهما يكن من أمر ، فان عصر معيار الذهب أي العلاقة بين كمية من الذهب ووحدة النقود قد انقضى . ونزل الذهب عن عرشه العظيم وفقد سلطانه المكين

الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها ؟

لنقولا الحداد

ما هي المدنية التي نعني ؟

هي حياة الأمم جمعاء في طمأنينة ، وفي الفردوس الذي ينشئهُ العلم ويوسعه على توالي الأيام

هذا الفردوس في خطر عظيم من أفعى الفساد وشيطان الشر اللذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلفحان أزهاره ، ويتلفان ثماره ، . فاذا لم يضرب ملاك الخير بسيفهِ عنقيهما تركاه خراباً يباباً . ومن يدري ان كان الله يغرس بعد ذلك فردوساً ثانياً ويجبل من ترابهِ آدماً جديداً يعيش فيهِ عيشة راضية

وكان أنه لما أمعن الناس في الشر لعهد نوح أفناهم الله بطوفان ماء . فهل هو مفنيهم الآن بطوفان نار ؟

رأينا العلم الحديث ينشيء على سطح الكرة الأرضية برًّا وجوًّا وبحراً فردوساً غضّ الشجر ، يانع الثمر ، عاطر الزهر ، عذب الغمر ، ناعم الأديم ، رطب النسيم — هو النعيم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشتاقه قلبه وتطيب بهِ نفسه ، فما باله انقلب جحيماً تجري من تحتهِ أنهارٌ من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وترمي أهله عفاريت سمائهِ بحجارة من سجِّيل . أكان العلم شيطاناً رجيماً ؟ وكان معمله للناس جحيماً ؟ كلاّ بل العلم ملاك كريم . وانما قلب الانسان زنيم لئيم . إذن أين مصدر الخطر على جنة المدنية الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أتتهُ المعرفة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت رسالته منح الهناءة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي أنشأ الفردوس هو نفسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاهلاً — ليتهُ لم يعثر على شجرة معرفة الخير والشر

***

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرأيته مدثراً بأكياس الرمل الى عنقهِ ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بمعبد فرأيته عارياً من هـذه الحضانة الرملية . ثم مررت بمعهدٍ فاذا هو محاطٌ بسلسلة من تلك الاكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المالُ اعزُّ من الانسان وأغلى؟ سبحان الله ! المال المثير الحرب يخاف على نفسه من كوارث الحرب : — أجل ان هيكل المال مهددٌ بالدمار شأن البيت المبني على الرمل سريع الانهيار

ان هذه المدنية غنية بالاختراعات . ولكن نفس اختراعاتها تحطم أدواتها . وغنية بالترف والبذخ ، والترف والبذخ يخدران اخلاقها حتى الموت . وغنية بالمال ، واله المال أخبثه الشهوات فسام مدنيته الكوارث والنكبات . وغنية بالمعرفة ، والمعرفة ابتدعت آلات تدميرها

اذن هذه المدنية كاذبة لانها تغرّ الانسان بالسعادة فلا يلبث ان يرى السعادة سراباً فيموت صادياً في بحر من الشقاء أجاج الماء . أجل ان هذه المدنية مزيفة تحمل في اذيالها اسباب فنائها

أيخشى اذن ان يكون أجلها دانياً ؟

هي الآن على مفرق طريقين عند تقاطعهما : طريق الدكتاتورية . وطريق الديمقراطية . يتقاطعان الآن ثم يفترقان . وفي أحد المفرقين سلامة المدنية وفي الآخر فناؤها

ليست الدكتاتورية شراً على الاطلاق ، فقد تكون خيراً اذا كان الحاكم بأمره صالح الضمير . ولا الديموقراطية خيراً على الاطلاق ، فقد تكون شراً اذا لعب فيها شيطان الوسائس ونخرها سوس الفساد . وانما الدكتاتورية والديموقراطية رمزان او اسمان لنظامين يغلب في أولهما شر قلب الانسان ويغلب في الأخرى صلاح قلب الجماعة

لسوء الحظ ان الدكتاتوريات الحالية ممثلة في نفوس أشخاص يستغلون لأنفسهم قوى الجماعة بدعوى الجهاد لخير الجماعة ورفاهية الجماعة . وانما هم بالحقيقة يضحون بهناءة الجماعة وسلام العالم على مذبح شهواتهم الشخصية

سل الألماني او الايطالي بأي نعيم كان ينعم في العشرين سنة المنصرمة ؟ أبالتقتير المؤلم في نفقاته وبالعمل الشاق في مصانع السلاح استعداداً للحرب ؟ ويالها من حرب تتقذف فيها تلك الاستعدادات الدافقة دخاناً الى السماء ، وحطاماً في الفضاء ، ومعها اشلاء الذين صنعوها . أهذا هو النعيم الذي كان الدكتاتور يمنيهم به ؟ وما هو ذلك النصر الذي كان يغررهم به اذا كانت مقدماته ذاك الجهاد المضني في المعمل وفي المعسكر وفي المعترك ، وخواتيمه تلك الاشلاء المتطايرة بين الأرض والسماء والديار المدمرة في البر ، والسفن المحطمة في البحر ؟

ولعلهم كانوا يعللون النفس بنعيم ارض الميعاد التي كان موساهم يمنيهم بها حين يتفانون في القتال على أمل النصر . أفبعد ان ينقضي شبابهم في الاستعداد ويفنى شبانهم في الجهاد يتمتعون ؟ عشرون سنة مضت وهم يشقون . فهبهم ربحوا الحرب ، فمن يبقى منهم لكي ينعم بغنائمها ؟ وماذا يبقى من نعيم ؟ سيرون بعد هذا الجهاد العنيف انهم غنموا خراباً يباباً ، وان النعيم الذي دفعوا ثمنه عملاً شاقاً وأرواحاً غالية لم يكن الا سراباً. هذه هي رحلة الدكتاتورية : من الوعود الى الخيبات !

وماذا يرجى غير هذه الخيبات اذا كان الحاكم بأمره يعد صعاليك شعبه بالرفاهية على حساب شعوب اخرى . والشعوب الأخرى ليست أضعف بأساً ولا هي أقل اعتصاماً بحبل الحياة

امبراطور انقاض

لقد اتضح جيداً ان هدف الدكتاتور في هذا الزمان هو ان يتمتع بلذة السلطة العليا بأوسع مدى . يريد ان يكون امبراطور ممالك ، وان امكن فامبراطور اوربا وان امكن فامبراطور الكرة الارضية . ولكي يصل الى هذا الغرض يجب ان تجمع في يده ألجمة جياده . ولكي يتسنى له هذا الجمع يجب ان يمني ناسه بسعادة فائقة في المستقبل على شرط ان يجاهدوا في الاستعداد لهُ في الحاضر . والعوام كالأنعام يساقون بتحريض الدعاية معللين النفوس بالاماني الموعودة ومتمتعين بالاحلام المنشودة . واما اليقظون الفاهمون منهم فيضطرون ان يسيروا مع التيار . فان ترددوا فالسوط يلسع أقفيتهم وهكذا كانت الحال منذ تبوأ هتلر وموسوليني كرسيهما

وهكذا كانت النازية (ومثلها الفاشستية) تغريراً لبسطاء الامة الالمانية وعمالها العاطلين وغلمانها الجاهلين ، فكانوا يحسبونها شرفاً لمن يعتنقها . وكانت الخطب الرنانة والدعايات الطنانة تسكرهم حتى صاروا في إبان نشوتهم يؤلهون زعيمهم ، ومن يجسر من الحكماء والعلماء والعقلاء المتعضين من هذا الحمق ان لا يقول « آمين » في أثناء الهتاف « لحامي الوطن الأمين »

هكذا كان هتلر وموسوليني يغرران بشعبيهما ويستغلان غرورهما وسذاجتهما الى ان استعدا الاستعداد الهائل لكارثة الحرب هذه . فهل يا ترى كانا يعلمان ان غنيمتهما ستكون — اذا غنما — أنقاض هذه المدنية ، واطلال هذه الحضارة ؟ فان كانا يعلمان هذا فهل كانا يقنعان بأن يكونا امبراطوري أنقاض وأطلال ؟

نقول هذا الآن ان هذه الحرب لن تنتهي بنصر الدكتاتورية الاَّ بعد دمار المدنية والمدن والمتمدنين جميعاً ؟ لأنه ما من أمة مغلوبة او محايدة او مستسلمة تقبل ان تكون عبيداً أذلاَّء لطاغيتين . فإما الانتصار عليهما ، وإما الجهاد حتى فناء الفريقين جميعاً .

مصير الامبراطورية الدكتاتورية

لنفرض فرضاً وهمياً وهو ان النصر الأخير تم لهتلر ولذيلهِ موسوليني ، فماذا تكون عواقب هذا النصر ؟

بحسب « كتاب كفاحي » ستبقى شبيبة الأمة الألمانية كلها جنوداً معبأة على الدوام لتأييد هذه الامبراطورية الهتلرية العالمية ، ويبقى كهول الأمة وكهلاتها وأحداثها وفتياتها عمالاً في مصانع السلاح . وأما الأمم الأخرى فتصبح عبيداً وأرقاء تشتغل تحت تهديد الجنود المحشودة في الحقول والمعامل والمصانع لتموين المجندين وتسليحهم . أعني ان الأمم جمعاء ومن جملتها أمة الألمان نفسها يسيرون في جهاد الحياة كأنهم عبيد واماء اذلاء . يكدون ويكدحون ، لا لكي

يتمتعوا بنتاج عملهم ، بل لـكي يعززوا السلاح الألماني الذي يستعمل لاستعبادهم . وعلى توالي السنين تتلاشى الامم الأخرى ثم تنقرض ، كما انقرضت الوحوش امام قوة الانسان ، وتخلي سطح الـكرة الارضية لـكي تملأه سلالة الألمان . وهكذا تصبح بقاع الأرض في أقاصيها الأربعة ملك امة واحدة فقط . ولـكن أية أمة ؟ — امة أرقاء تتحكم فيها شرذمة من الزعماء الطغاة ردحاً من الزمن الى ان يدب الشقاق بين هؤلاء الزعماء فيختصمون الى ان يقتسموا ذلك التراث الفني العلمي وتعود السلالة البشرية الجرمانية الدم مجموعة امم في مجموعة ممالك . ولا تلبث ان تتداولها الحروب وتبيدها المهالك وربما بقيت حثالة في زنوج مجاهل افريقيا نسيها الدمار لانها بلا وطن ولا دار . ومن يدري ان كان هؤلاء الفضلة من الانسان يستطيعون ان يستأنفوا الحضارة وينشئوا مدنية جديدة في ألوف القرون ، او انهم ينقرضون أيضاً ولا يبقى أخيراً من يرث ملكوت الانسان الا الضواري والحشرات . ويتجه فعل سنة النشوء والارتقاء اتجاهاً آخر لا يعلمه الا علام الغيوب . هذه عاقبة الفرض المحال الذي فرضناه آنفاً ونعني به انتصار هذين الدكتاتورين الجهنميين على الديموقراطية الحقة

واذا كانت نهاية هذه الحرب اندحار الهتلرية وانهيار الدكتاتورية كما هو إيمان جميع الأمم الراغبة في السلام فالأمر الذي لا ريب فيه ان السلالة البشرية ستخرج منها خروج المريض المصاب بحمى خبيثة ، منهوكة القوى مضعضعة الوجدان تستغرق نقاهتها مدة طويلة من الزمان

من كان السبب ؟

ولعل القراء يتساءلون عمن هو الجاني الأصيل في هذا الجنون الاجتماعي الوبيل الذي حطم فيه الانسان معالم مدنيته ودمر به جميع أسباب رفاهيته من غير ان يحسب حساب ربحه او خسارته في هذه المغامرات التي لا يمكن ان يكون الحظ فيها الا نحساً

قالوا : السبب هو معاهدة فرساي . وعندي ان معاهدة فرساي لم تكن سبباً حقيقيًّا البتة . بل كانت حجة لطغاة الالمان يتذرعون بها لغزو الانسانية . واذا كانت معاهدة فرساي السبب الحقيقي فما شأن نروج ودنمرك وهولاندا وبلجيكا في هذا النزاع ؟

لو لم تكن معاهدة فرساي قد وجدت في حوادث التاريخ لاختلق الألمان سبباً آخر لغزو الانسانية كما اختلقوا السبب في الحرب الماضية . ولم يكن ثمت من سبب لها غير رغبة طغاة الألمان ولا سيما العسكريين منهم في اجتياح العالم لـكي يؤسسوا امبراطورية السوبرمان الجرماني

فسبب هذه الثورة الجرمانية الجنونية هو اقلام بعض مفكريهم الهوج وأخصهم نيتشة الذي طلع على العالم بمبدإ اجتماعي سليط ينقض اركان الاجتماع ويقوضها الى الأساس ، وهو تمجيد القوة ومحق الضعيف . وبعبارة اوضح هو تحبيذ « تطبيق سنة التنازع الحيوانية على البيئة

الاجتماعية في حين ان هذه السنّة تتلاشى رويداً امام سنة التعاون والتضامن الانسانية التي هي أساس الاجتماع، ولولاها لما كان اجتماع انساني، ولا امتاز الانسان على الحيوان بشيء

تسمم الجنرية الالمانية بسم السوبرمان

فمبدأ فلسفة نيتشة ومن جاروه لا يختلف عن مبدإ التنازع الحيواني الاّ بأن العامل فيه العقل المفكر المختار لا الغريزة المسيرة . ولذلك هو أفظع شرًّا من التنازع الحيواني . وسلوك الألمانيين الوحشي في هذه الحرب هو أوضح برهان — لارحمة ولاعطف ولا رفق بل جبروت وقسوة وتفظيع لاحد لهُ، تفظيع لا تأتيه الضواري

هذه الفلسفة النيتشية التي افتتن بها غليوم قبل هتلر وتسمم بها نظامه العسكري وقواده وجنوده حتى أخرجهم غرورهم من تحت سلطة القانون المدني بحيث يباح للجندي أن يقترف أية جريمة لأن النظام العسكري يحميه من العقوبة هي السبب الأساسي . ولذلك كانت القوة العسكرية الألمانية منذ عهد غليوم دائبة الشوق الى الحرب تتحين أية فرصة لخوض غمارها

وكان هتلر وصحبه أكثر تسمماً بهذه الفلسفة . فجاءت النازية مرض هذا التسمم الذي تفشى في الأمة الجرمانية بأسرها الاّ في جانب من عقلائها وعلمائها وحكمائها الذين أصبحوا لدى هذا الوباء النازي بلا حول ولا طول . ذلك هو السبب الأصيل لهذه الكارثة التي بليت بها الانسانية فاضطرت جميع الامم ان تضحي براحتها وهنائها وسلامها في سبيل الاحتياطات الغالية لاتقائها وتدارك نتائجها « الدمارية » . فانظر كم هو تأثير تفكير المفكرين في النظم الاجتماعية . وقارن رسالات الانبياء والرسل الاقدمين بمبادىء شذاذ المفكرين والفلاسفة المتأخرين

مثل هذه المبادىء العوجاء والفلسفات الهوجاء تختلق عذراً لتحديد حرية المفكرين والخطباء والمحررين، ولاسيما لأن العامة ضعاف الحكم قصار النظر ضيقو التفكير . تتلاعب بعقولهم اهواء الكتّاب والخطباء كما تتلاعب الرياح بخفاف الريش والهباء . فخليق باهل التفكير والتحبير ان يرموا بابصارهم الى الاهداف التي تصيبها افكارهم وآراؤهم في النُظم الاجتماعية

القاعدة الأساسية للفلسفة الاجتماعية في اصطناع الآراء التي يراد بها ارشاد الجماهير هي ان يكون الهدف الاخير لكل رأي وفكر ادبي وخلقي واجتماعي تكتيل الجماعة وضم الجماعات وربطها برباط المصالح الاجتماعية الحقة العادلة، لا التفريق بين الافراد والامم بتمجيد العصبيات الجنسية والنعرات الوطنية . ان تمجيد الجنس والوطن كان منذ القديم والى اليوم سبب تنازع الامم وحروبها . والآن وقد اصبحت الامم على اتصال سريع فيما بينها صار في الامكان ملاشاة العصبية الجنسية في « الانسانية العليا » وافناء «الوطنية» في «الاممية العامة»

فليفكر قادة الامم المفكرون في هذه القاعدة الانسانية قبل ان يمسكوا الاقلام ويقفوا على المنابر

باب المراسلة والمناظرة

حول عقيدة اشبنجلر

صديقي الفاضل محرر المقتطف : اطلعت في مقتطف يوليو على ما كتبهُ الاستاذ السيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي ، رداً على كلمتي في مقتطف ابريل ، وأرجو ان يتسع صدر المقتطف لنشر الكلمة الآتية تعقيباً على ما كتبهُ الاستاذ وتوفية للبحث واستجلاء للحقيقة

المصدر الوحيد الذي اعتمدت عليهِ في تقرير يهودية اشبنجلر هو الفقرة الواردة في المقدمة التي كتبها ريشارد كالرجى لكتاب أبيهِ الكونت هنري كالرجي كما سبق أن أوضحت ذلك، وريشارد كالرجي من أسرة نمساوية عريقة ، والمقال الذي عرض كتاب الكونت كالرجي كُتب بالالمانية ونشر في جريدة نمساوية وترجمتهُ بعد ذلك مجلة العصر الحي الاميركية ، وبديهي ان ترجمة المقال من الالمانية الى الانجليزية لا تجرده من الجنسية الالمانية أو النمساوية ولا تحيله انجليزيًّا أو اميركيًّا أو يهوديًّا ، فالمصدر الذي اعتمدت عليهِ اذاً ليس انجليزيًّا ولا أميركيًّا ولا يهوديًّا كما زعم الاستاذ وانما هو مصدر نمساوي ونمساويٌّ صميم لا غبار على نمساويته ، وسبيل إضعاف هذا المصدر أو التشكيك في صحته إما أن تكون باظهار الخطأ في ترجمة الفقرة وإثبات أن اسم اشبنجلر أُقحم فيها اقحاماً وذلك بالرجوع الى الكتاب نفسه الذي وضعهُ الكونت هنري، او بنقض ما ذهب اليهِ ريشارد كالرجي ، وريشارد كالرجي شخصية نمساوية بارزة ومؤلف محترم المكانة ثاقب الرأي انساني النزعة ،وأظن انهُ من المستحسن أن نرد كلامهُ ونلغي رأيهُ برأي رجل آخر يعادله في المكانة الأدبية والسمعة الفكرية أو يفوقه ، وأصارح الاستاذ الحسيني وحضرات القراء أني عند ما راجعني حضرته في يهودية اشبنجلر تسرَّب اليَّ الشك لاني كنت أحب لنفسي ان أكون قد اعتمدت في ذكر يهوديته على مصادر عدة — لا على مصدر واحد — شأني في تحقيق أكثر ما أكتب — وذلك مع تقديري لصعوبة الحصول على المراجع في مثل هذه المسألة الدقيقة لان أكثر الكتاب اليهود يغفلون الاشارة الى يهوديتهم، والكثيرون ممن يكتبون عنهم لا يعنون بهذه الناحية ، وقد وددت أن يكون عند الاستاذ الحسيني الخبر اليقين الذي يقطع الشك ، والحجة الدامغة التي تجلو الحق ، ولكن الاستاذ لم يحقق أمنيتي . فالاستاذ مثلاً يستدل على ان اشبنجلر ليس يهوديًّا بأن حضرات زملائه اساتذة الجامعة الذين عاشوا في المانيا سنين وتخرجوا في معاهدها أنكروا ذلك. ولست أطيل مناقشة هذه الحجة ، ويظهر اني في حاجة الى بعض البساطة المقدسة لأسيغها ، وحاول الاستاذ كذلك التشكيك في يهوديته لا نهُ «عاش في المانيا في زمن بلغ اضطهاد اليهود فيهِ ذروته ولم يخفض لهم جناح الرحمة » . كأنهُ كان

يريد من اشبنجلر ان يعيد تمثيل دور موسى الكليم ويتحدى فرعون العصر الحاضر ويقود يهود المانيا الى ارض الميعاد ليثبت يهوديته ، وأنا اعرف ان الاستاذ الحسيني يدّعي لاشبنجلر «قوة البصيرة ودقة التفكير» . ولم أعرف بعد انهُ يعزو اليهِ البطولة وحب التضحية والاستشهاد ، فاذا كان يعهد فيه هذه المناقب العالية والصفات الحميدة فليتولَّ حسابه لتقاعده عن نصرة قومه وهو على أي حال ليس اول ولا آخر من آثر العافية وطلب السلامة وسار في ركاب الاقوياء ، والاستاذ الحسيني نفسه قد وصف اشبنجلر بأنهُ من دعاة « البروسية » وأمثال هؤلاء الدعاة يحبذون مظاهر الجفوة والخشونة والاضطهاد والقسوة ، والرحمة عندهم خور في الطبيعة

وقد كانت العبارة التي اختارها الأستاذ الحسيني للتعبير عن رأيه في نفي اليهودية عن اشبنجلر في كلمته الأولى تضطر الانسان الى ان يفهم انه ينتقص العقلية اليهودية وقد استصوبت في الرد على ذلك ان اذكّره بالفيلسوف اليهودي العظيم باروخ اسبنوزا فاستخلص الأستاذ من ذلك اني اعتقد بأن هناك تقارباً بينهما في التفكير وأخذ يرشدني الى ما بينهما من خلاف وقد اتعب الأستاذ نفسه فاني لم اكن أجهل ما قاله وأشكر لهُ على أي حال تحرّيهُ

ويرى الأستاذ ان بعض المفكرين ينكر تأثير اسبنوزا في جيتي كبير شعراء الألمان ، وقد رجعت فيما ذكرته عن تأثره باسبنوزا الى نصوص واردة في كتابات رينان وماثيو ارنلد وادوارد كيرد وجورج سانتايانا ورينيه برتلو ووليم شيرر ووليم جيروسلم وهارلد هفدنج ووندلباند . فجورج سانتايانا يقول مثلاً « حقيقة كان جيتي طوال حياته تلميذاً لاسبنوزا[1] والأستاذ جيروسلم يقول « كتاب الأخلاق لاسبنوزا اثر تأثيراً عميقاً في هردر وجيتي وشلنج وهجل[2] » ووندلباند يقول في صفحة ٥٩٧ من الترجمة الانجليزية لكتابه القيم في تاريخ الفلسفة « لقد أثر اسبنوزا تأثيره القوي في عقول الناس لانه كان يرى الطبيعة — دون ان يستثني الانسان — وحدة متصلة مترابطة يتكشف فيها الموجود المقدس في تمام كماله وقد اقتبس جيتي هذا التصور فأصبح له منزلة حاسمة في نموّ الفكر الألماني » وتحدث جيتي نفسه في احدى رسائله عن اسبنوزا فقال « الرجل الذي أثر فيَّ تأثيراً قويًّا والذي كان مقدراً ان يؤثر تأثيراً عميقاً في طريقة تفكيري جميعها هو اسبنوزا[3] »

ويرى الأستاذ الحسيني ان فلسفة اسبنوزا تعد « الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية الاسلامية » وكنت أحب ان يكون الاستاذ اكثر دقة من ذلك فان استعمال لفظة « صدى » هنا لا تخلو من امتهان لفيلسوف سامي الشأن مثل اسبنوزا ، وهي تقلل من طرافته التي اعترف بها كبار مؤرخي الفلسفة ، وقد تأثر اسبنوزا[4] بالآداب العبرية ودراسة التلمود واطلاعه على مؤلفات علماء اليهود

(١) راجع صفحة ١٣٩ من كتاب سانتايانا Three Philosophical Poets. (٢) راجع صفحة ٢٥٠ من كتاب جيروسلم Introduction to Philosophy (٣) راجع صفحة ١٧٦ من كتاب لويز The Libe .& Works of Goethe (٤) راجع صفحة ٥٤٨ من كتاب روبرت فلنت Anti-Theistic Theories

ومفكريهم وتأثر بابن رشد وابن ميمون ولكنه في نفس الوقت تعلم اشياء كثيرة من برونو وديكارت وهوبز وتعزيزاً لهذا الرأي يقول الاستاذ هارالد هفدنج في صفحة ٢٩٦ من الجزء الأول من كتابه «تاريخ الفلسفة الحديثة» جذور فلسفة اسبنوزا تتشعب من جهات عدة في التقاليد الفلسفية فهو قد استفاد من ديكارت وبرونو كما استفاد من ابن رشد وابن ميمون وليس هذا مما يزري به بل هو من علامات عبقريته فأحجار بنائه مجلوبة من امكنة كثيرة والمهم في المذاهب الفلسفية ليس احجار البناء وانما هو طريقة التفكير، والفيلسوف الكبير تلتقي في فلسفته تيارات عصره المختلفة، وهو يطبعها بطابعه ويستخرج منها نظرته العامة للحياة ومذهبه في الوجود، وكذلك كان اسبنوزا، ولم يكن الرجل صدى من الاصداء او ظلاً لشيء من الأشياء

وقد تحدث الاستاذ بعد ذلك بلهجة لا تخلو من «الدون كيشوتية» عن علاقة الانجليز باليهود، وهذا الموضوع في كثير من الأحيان أكثر صلاحاً للتندُّر واظهار الحماسة منهُ للبحث العلمي الهادىء المتزن ولیست عندي مؤهلات للخوض فيه وعلاقته ليست أكيدة بالمسألة التي نبحثها وليس ليونارد ولف من كتّاب الدعاية كما توهم الاستاذ وانما هو مفكر ممتاز صريح الرأي حر التفكير وكتابه عن دجاجلة الفكر الحديث من الكتب القيمة الممتعة، وأعيذ الاستاذ الحسيني أن يكون ممن يكتفون في الحكم على الاشياء بالمظهر والعنوان، ولهجة ليونارد ولف في كتابته اقل اقذاعاً وأقرب الى توخي الادب والاعتدال من اللهجة التي يستعملها أحياناً كبار مفكري الألمان، وأنا افترض ان الاستاذ يعرف ما قاله شوبنهاور في معاصريه من كبار الفلاسفة الألمان وما كتبهُ نيتشة عن مخالفيه أو من حاول نقدهم وما كتبه ماكس نوردو — وهو محسوب على الثقافة الالمانية — عن امثال ابسن وتولستوي وزولا وغيرهم مما يدل على انهم في حاجة ماسة الى أن يهدي اليهم الاستاذ الحسيني نسخة من كتاب «التحلية والترغيب في التربية والتهذيب» وانا اشارك الاستاذ الحسيني شعوره واعطف على وجهة نظره في ضرورة التزام الأدب العالي في النقد وتزييف الآراء ولكن ماذا نصنع وما حيلتنا اذا كان هؤلاء الأوربيون الاشقياء لا يراعون اللياقة ولا يستمسكون بآدابنا الشرقية العالية في المناقشات والجدل ؟ ؟ أنتركهم آذانهم ونشهر في وجوههم العصا ؟ ليفعل ذلك من استطاع اليه سبيلاً فان تقويم المنكر من شريف الخلال ودلائل المروءة

علي أدهم.

تصحيح

وقع خطأ في العدد الماضي في مقال عقيدة اسوالد اشبنجلر صفحة ١٨٢ سطر ١٤ «حتى ولو كان» والصواب «حتى ولا كان» وفي سطر ٢١ «وهو لم يحول ساكن» والصواب «وهو لم يتحرك من ساكنه»

ملكات منفيات

لابراهيم موسى

من الحقائق الأليمة في هذا العالم الغريب الأطوار ، الكثير المفاجآت والتحولات ، ان عدد الملوك المخلوعين عن العرش ، المنفيين من أوطانهم ، أصبح بعد الحربين الماضية والحالية أكبر من عدد الملوك الذين ما زالوا يتربعون على العرش ويتولون مقاليد الحكم في بلادهم .

وفي العالم ملكات كثيرات ، كنّ زينة الملك والتيجان والعروش ، فضاع ملكهنّ ، وقد يكون ذلك الى حين ، وقد يكون الى الأبد ، ولكنهنّ صابرات على محنتهنّ ، يقضين أوقاتهنّ في كتابة المذكرات او املائها ، أو في مرافقة أزواجهنّ في السياحة والصيد ، أو ينظمنَ الحفلات ويجمعنَ الأنصار ليوم موعود يوم تقوى شوكة أحزابهنّ وأحزاب أزواجهنّ في أوطانهم فيطلبون اعادة العروش المسلوبة اليهم . والعالم كله في أماني وأحلام ، فلماذا لا يمنينَ النفس بالأماني ولمَ لا يعشنَ بالآمال والأحلام ؟ !

ملكة رومانيا الوالدة

وها هي ذي هيلين ملكة رومانيا (الوالدة) ولدت في عام ١٨٩٦ ، وهي ابنة الملك قسطنطين ملك اليونان السابق ، تزوجت البرنس كارول الروماني عام ١٩٢١ ، ولكنّ زوجها نزل عن حقه في العرش في عام ١٩٢٥ وهجر بلاده وذهب الى فرنسا مع خليلته مدام لوبسكو ، ثم عاد عن رأيه ورجع الى بلاده ونزع الملك من ابنه ، وأصبح الأخير وليًّا للعهد بعد ان كان ملكاً ثم نشب خلاف بين كارول وهيلين فحدث الطلاق المعروف ، واعتزلت الملكة العالم في فلورنسة بايطاليا ، وكانت تقابل ابنها الامير ميشل مرة كل عام ، ثم حدث انقلاب الحرس الحديدي المعروف وتولى الجنرال انطونسكو الحكم ، وعادت الأم الى جانب ابنها ترعاه بعينها وتكلأه برعايتها بعد ان قضت سنوات كانت لا ترى فيها ابنها وأرض وطنها الاّ مرة كل عام

أغرب ملكة منفية

وأغرب ملكة منفية في هذا الوجود هي اليزابت اليونانية ، كانت زوجة لجورج الثاني فطلقت منه . ولدت في عام ١٨٩٤ ، وهي ابنة الملك فردناند الروماني (شقيقة كارول) ، لم تتولّ الملك الاّ ١٤ شهراً ، ثم خلع زوجها في عام ١٩٢٣ ، وفي المنفى فترت العلاقات بينها وبين زوجها ، ثم دعي الأخير مرة ثانية الى العرش

(١) الملـكة هيلين ملـكة رومانيا الوالدة (٢) الملـكة اليزابيت اليونانية (٣) الامبراطورة زيتا (٤) الملـكة جيرالدين ملكة البانيا (٥) الملكة فكتوريا ملـكة اسبانيا السابقة (٦) الملـكة ثريا ملكة افغانستان السابقة (٧) الأمبراطورة هرمين الزوجة الثانية لغليوم الثاني (٨) الملكة اميليا البرتغالية (٩) المـلـكة رامبا ياربي ملكة سيام السابقة

ولكنهما طلقا ، واليوم . . . هل تدرك مم تعيش هذه الملكة السابقة ؟

يقال إنها تدير متجراً لأنواع « البقالة » في بخارست مسقط رأسها ، ومتجرها قريب من القصر الملكي ، ولا ندري هل صادر الالمان ما في متجرها بعد الاحتلال ام تركوه

فما أغرب حوادث الزمن وما أعجب تقلبات الدهر

الامبراطورة زيتا

والامبراطورة زيتا ، امبراطورة النمسا وملكة المجر ، كانت تتحكم في ربوع أوربا الوسطى كلها ، وكان رعاياها يجلونها ويوقرونها ، من تشك الى مجر الى سلاف الى نمسويين . ولدت في عام ١٨٩٢ ، وهي ابنة البرنس الايطالي بوربون بارما ، ثم تزوجت البرنس تشارلس هابسبورج عام ١٩١١ ، وبعد سنوات أصبح زوجها امبراطوراً ، ولكنه لم يكد يقضي في الملك سنتين حتى هزمت النمسا مع المانيا في الحرب الماضية ، فخرج من بلاده يهيم على وجهه في أوربا ، ثم مات عنها ، وانقطعت أنباؤها بعد نشوب الحرب الحاضرة فلا يعرف العالم من أمرها شيئاً

ملكة البانيا

أما جيرالدين ملكة البانيا ، فولدت عام ١٩١٧ في بودابست ، فهي مجرية الأصل أبوها الكونت أبوني ، كان من النبلاء ولكنه لم يكن من الأثرياء ، زارت تيرانا عاصمة البانيا عام ١٩٣٧ فقدمت الى الملك زوغو فهام بها حبًّا من النظرة الأولى ، وخطبها وتزوجها في عام ١٩٣٨ وكان الكونت شيانو من شهود الزواج ، وما كاد يمضي عام حتى كان الكونت وحموه موسوليني سبباً في هدم صرح الهناء الذي كان الملك زوغو والملكة جيرالدين يعيشان فيه ، إذ غزت ايطاليا البانيا وضربتها بالقنابل من البر والجو بدون مسوغ الا الجشع ، فاضطرت الملكة الى الفرار مع طفلها الوليد حتى لا تقع أسيرة في أيدي الغزاة ، وهي تعيش وملكها في مكان ما بانكلترا على الغالب وقد يأتي يوم تعود فيه الى ملكها بعد انتصار الحلفاء

ملكة أسبانيا السابقة

وهذه هي فكتوريا ملكة أسبانيا السابقة ولدت في قصر بالمورال عام ١٨٨٧ ، فهي حفيدة الملكة فكتوريا ، تزوجت الملك الفونسو الثالث عشر الاسباني عام ١٩٠٦ ، وانجبت ستة أطفال مات اثنان منهم في حوادث السيارات ثم طلقت من زوجها وهما يعيشان منفصلين ، وقد فقدت مُلكها بعد ٢٧ عاماً ، وقامت حركة الجنرال فرانكو فأملت هي وزوجها خيراً ، ثم ظهر ان فرانكو لم يقاس بنفسه ليجعل على رأس اسبانيا ملكاً أو رئيساً غير نفسه . وقد توفي الملك الفونسو من عهد غير بعيد في ايطاليا

ملكة أفغانستان

أما ثريا ملكة أفغانستان السابقة وزوجة أمان الله خان ، فكانت كريمة لمحمود زارزي

وزير خارجية أفغانستان فأصبحت ملكة ، وأرادت ان تدخل مظاهر الحياة الأوربية الحديثة على بلادها ففشلت ، وكان فشلها سبباً في سقوطها ، وطردت هي وزوجها من الملك وسلبا عرشها وتاجهما في عام ١٩٢٩ ، ويقال انهما الآن في ايطاليا

زوجة غليوم

وهذه هي الامبراطورة هرمين ، الزوجة الثانية لغليوم الثاني امبراطور المانيا السابق ، شهدت من المجد والعظمة والجبروت ما لم يشهده أحد ، كان زوجها الاول هو البرنس شولناخ كارولات وقد توفي عنها في عام ١٩١٩ ، وأنجبت منهُ خمسة أطفال ، وها هو ذا زوجها الثاني يموت من أسابيع ،ففقدت بذلك زوجين أحدها أمير والثاني امبراطور ، وكل ذلك في اثنين وعشرين عاماً

ملكة البرتغال السابقة

وهذه هي الملكة إميليا البرتغالية ، ولدت في تويكنهام عام ١٨٦٥ وهي ابنة كونت دي باري زوجت عام ١٨٨٦ من ولي عهد البرتغال ،وقد أصبح ملكاً بعد ذلك ، ولكن ابنها وزوجها قتلا غيلة في لشبونة عام ١٩٠٨ فتولى ابنها الأصغر مانويل العرش ولكنهُ خلع بعد قليل، وكانت تعيش في فرساي منفية عن بلادها قبل سقوط فرنسا ، فتقضي أغلب أوقاتها في أعمال البر والخير ، وهي في الصليب الأحمر الدولي اليوم ، عسى ان تجد في عمل البر والخير عزاء لها بعد ان نكبها العرش في زوجها وابنيها

ملكة سيام السابقة

وأخيراً نحدثك ايها القارىء الكريم عن ملكة سيام السابقة رامبا يارني ، تولت الملك في عام ١٩٢٥ ، وفي أثناء حكمها زارت مع زوجها عواصم أوربا ، وكانا في خلاف مستمر مع حكومتها فنزل الملك عن العرش عام ١٩٣٥ ، وهما يعيشان في انكلترا وقد اشتهرا بأنهما مولعان بالرياضة وأسباب اللهو ويشاهدان كثيراً وهما يمران في شوارع المدن ، ويبدو أنهما يفضلان ملذات الحياة العادية على أبهة الملك ، ولا يدري المرء أيعزيهما في فقد العرش أم يهنئهما به !

فروع معهد رکفلر في اوربا

لمعهد ركفلر الطبي فروع في مختلف انحاء العالم وغرض رجالها البحث العلمي في الأمراض المتوطنة وغيرها في شتى البلدان

وقد اذاع الدكتور ريموند فزدك رئيس المعهد ان جميع الفروع الاوربية اقفلت ابوابها بسبب الحرب ولكن المعهد انشأ فرعاً مؤقتاً في لشبونة حاضرة البرتغال

ومن اعمال فروع المعهد السيطرة اوالسعي الى السيطرة على الملاريا على طريق بورما في الصين الوطنية والسعي الى ابادة بعوض الحمى الصفراء في البرازيل وصنع نصف مليون جرعة من لقاح الانفلونزا لترسل الى بريطانيا

كيف تجرد الشمس نشاطها

تستهلك الكربون ثم تبنيه بتفاعل العناصر

مضى على الشمس الوف الملايين من السنين وهي تشع طاقتها ضوءاً وحرارة وأشعة أخرى . وما تشعه كلّ ثانية من الطاقة يعدل أربعة ملايين طن من كتلتها . فكيف استطاعت أن تمضي الوف الملايين من السنين وهي تشع هذا الاشعاع بغير أن تضمحل ؟

من الحلول العلمية التي عرضت إجابة عن هذا السؤال حلّ عرضهُ الدكتور بيث Bethe أحد أساتذة جامعة كورنيل الأميركية ولبابه ان الشمس تستنفد الكربون في الاشعاع ثم تبنيه بتفاعل العناصر في باطنها وتستعمله ثانية وثالثة وهلم جراً في دورة تامة قدرها بيث أولاً باثنين وخمسين مليوناً وخمس مائة واثنين وخمسين الفاً من السنين (٥٢،٥٥٠،٠٠٠) ثم صُحّح هذا الرقم بعد التجارب في معامل البحث الطبيعي . وقوام هذه الدورة الكربونية في الشمس ست مراحل تمكّن بيث وغيره من علماء الطبيعة في اميركا وانكلترا من تحقيقها مرحلة مرحلة في المعمل الطبيعي . اي إن بيث وضع نظريته اولاً مستنداً الى الرياضة العالية والطبيعة الكهربية ثم حققت المراحل من حيث امكانها واستحالتها في معامل البحث فثبت بعد ثلاث سنوات أنها ممكنة . واليك المراحل الست :—

اولاً — الايدروجين المهتاج بفعل الحرارة العالية في باطن الشمس يهاجم الكربون. ولا يخفي ان نواة ذرة الايدروجين بروتون واحد فيخترق نواة ذرة الكربون المركبة من ستة بروتونات وستة نوترونات (مجموعها ١٢) فيتحول الكربون باضافة البروتون الجديد الى نواة نتروجين (وزنه الذري ١٣)

ثانياً — يطلق النتروجين كهيرباً موجباً فيعود كربوناً ولكنهُ كربون وزنه الذري ١٣ (أي أنهُ أحد نظائر الكربون)

ثالثاً — يهاجم الايدروجين هذا الكربون (١٣) فيدخل بروتون الايدروجين نواة الكربون فيحوله نتروجيناً وزنهُ الذري ١٤ وهو النتروجين العادي

رابعاً — يهاجم الايدروجين هذا النتروجين فيضيف الى نواته بروتوناً فيصبح أكسجيناً ذا وزن ذري (١٥) وهو أحد نظائر الأكسجين العادي

خامساً — هذا الأكسجين غير مستقر فيطلق كهيرباً موجباً فيتحول نتروجيناً وزنهُ الذرّي ١٥ وهو نظير آخر للنتروجين العادي

سادساً — يهجم الايدروجين على هذا النتروجين فيحوّله اكسجيناً عاديًّا . ولكن هذا الأكسجين لا يبقى في باطن الشمس على حالهِ فينشطر شطرين أحدهما نواة هليوم والآخر نواة كربون وبتولد الكربون تبدأ الدورة ثانية

في أثناءِ هذا التحوُّل الذري تفقد ذرات الايدروجين الأولى التي هاجمت الكربون شيئاً قليلاً جدًّا من كتلتها فيتحول الى طاقة. ولكن هذا التحول غير مستطاع إلاّ في أحوال من الحرارة العالية كأحوال باطن الشمس. فالطاقة التي تشعها الشمس تتولد من مادة صغيرة الكتلة. وعندما نقول ان طاقتها التي تشعها في الثانية تعدل ٤ ملايين طن نعني انهُ اذا تحولت أربعة ملايين طن بوسائلنا القاصرة ولدت هذه الطاقة. ولكن الطبيعة تستطيع توليدها من كتلة أقل كثيراً

ويرى الاستاذ بيث ان ما في الشمس من الايدروجين يكفي لاشعاعها مدى ١٢ الف مليون سنة أخرى

السلفانيلاميد والسل

يطالع القراء في مقال المقتطف الأول هذا الشهر انباء عجيبة عن فائدة العقاقير المشتقة من عقار السلفانيلاميد وفي طليعتها ان عقار السلفاجوانيدين فعَّال في الفتك بباشلس الديسنطاريا الباشلسية وباشلس التيفود. ونضيف هنا الى ما اوردناه هناك ان طبيبين اميركيين استعملا السلفانيلاميد مسحوقاً استعمالاً ناجحاً في حالات التهاب البريطون ولاسيما الحالات التي تعقب عملية استئصال الزائدة

***

وأذاع ثلاثة اطباء اميركيين من معهد مايو الطبي المشهور انهم امتحنوا عقاراً مشتقاً من السلفانيلاميد دعوه پرومين Promin في مقاومة الدرن الرئوي (السل) وقال احدهم في رسالة تليت في جمعية الباثولوجيين والبكتيريولوجيين الأميركية ان النتائج التي اسفرت عنها مباحثهم في الارانب الهندية تبعث على الأمل وتشجع على مواصلة البحث

وقد جروا في مباحثهم هذه على الطريقة العلمية المألوفة فأخذوا فريقاً من هذه الأرانب وحقنوه بالبرومين وفريقاً آخر ارانبه كأرانب الفريق الأول عمراً وصحة وتركوه بغير حقن ثم حقن افراد الفريقين بما يحدث الدرن الرئوي فيها فلم تصب ارانب الفريق الأول (المحقون بالبرومين) وماتت جميع ارانب الفريق الثاني

ولما كان الدرن في الأرانب الهندية يختلف في سيره عنهُ في الناس فقد حذر الأطباء الباحثون شأن العلماء الحقيقيين من الاعتقاد بأن فائدة البرومين في كفاح الدرن البشري قد ثبتت. ولكن رجاءهم كبير في تحقيق ذلك

ڤيتامين B وحالة الاعصاب

اذا كان هناك وجوه شبه من الناحية الفسيولوجية الخاصة بالأعصاب بين الجرذان والناس ففيتامين B الموجود في الخميرة والكبد واللبن وجنين الحنطة يجب ان يقي اعصاب الناس من الأصوات المزعجة كأصوات القنابل وصفارات الانذار بالغارات الجوية وغيرها

وهذا الرأي مستخلص من بحث للعالم باتون Patton (جامعة بتسبرج الأميركية)

المواد القرنية غذاء

الشعر والأظافر والقرون والحوافر والفرو والريش والصوف قوامها جميعاً مادة بروتينية تدعى كيراتين، وهي في حالتها الطبيعية لا تهضم. ولكن الدكتور جوزيف روث Routh احد علماء جامعة أيوى الأميركية اذاع من عهد قريب انهُ كشف طريقة لتحويل جميع هذه المواد القرنية الى مواد مغذية

فقد اخذ الصوف وقطعه قطعاً صغيرة ووضعها في اسطوانة فيها كرات من الصلب فصارت اذا أديرت الاسطوانة تدحرجت الكرات بعضها على بعض وبينها قطع الصوف فسحنتها بعد ثمانية أيام سحناً فغدت انعم من الدقيق

هذا الدقيق المصنوع من الصوف طعام مغذٍّ لأنه يحتوي على ما لا يقل من سبعة من الأحماض الامينية وهي قوام الغذاء الذي نستخرجه من البروتينات. وقد صنع هذا الباحث طعاماً خمسه مسحوق الصوف وأطعمهُ حيوانات التجارب فنمت نمواً عجيباً وعنده انهُ اذا اعد هذا المسحوق الإعداد الواجب غدا عنصراً ذا شأن في تغذية الحيوان وربما الانسان

الأنوار (الهرمونات) وحب الشباب

في اثناء دور المراهقة قد تفرز غدد الجلد في الوجه والعنق والصدر والكتفين فيضاً من مفرزاتها الدهنية فتسد بعض قنوات هذه الغدد ويتكوَّن عند مخرجها حبٌّ أسود وقد يحدث التهاب في الجلد وبثور وهي ما يعرف بحب الصبا او حب الشباب او « الأكنة » Acne.

ويقول أحد الأطباء الأميركيين ان أربعة ملايين من المراهقين والمراهقات يصابون بهذه الحالة او معرضون للاصابة بها في الولايات المتحدة ولكنها أشيع في المراهقين منها في المراهقات

ولما كانت هذه الحالة ترافق المراهقة فقد ذهب الأطباء الى ان التحوُّل في الغدد الصم وأنوارها في هذا الدور من الحياة سبب ذلك ولكن التأييد التجريبي لهذا الرأي لم يُذَع إلاَّ من عهد قريب وجاء نتيجة للمصادفة. وقد أذاعه الدكتور جيمس هاملتون أحد أساتذة كلية الطب بجامعة يايل الأميركية. فقد بدأ بحثاً ما وليس في نيته مطلقاً ان يبحث في « حب الشباب » وسببه. وكان يعالج في أربعين مريضاً، نقص الأنوار (هرمونات) الجنسية. فحقنهم بما تقتضيه الحالة من خلاصة الغدد مدى ثلاثة أسابيع او أكثر. ولكنهُ حصل على نتيجة مستغربة وغير منتظرة ذلك بأن حب الشباب ظهر في ثلاثة أرباعهم

ومع ان هذا الكشف لم يفض الى ابتكار علاج تام لحالة « حب الشباب » إلاَّ انهُ أيد الصلة بين التحول الطارىء على مفرزات الغدد الصمّ في المراهقة بهذه الحالة

مكتبة المقتطف

الصين وفنون الاسلام

الفه الدكتور زكي محمد حسن وطبعته مطبعة المستقبل في القاهرة في ١٤٨ صفحة من القطع الكبير

كانت النواة الأولى لهذا الكتاب القيم بحثاً ألقاه المؤلف في المؤتمر السنوي الحادي عشر للمجمع المصري للثقافة العلمية ، ولكن المؤلف حفظهُ الله للعلم أراد أن ينتفع بهذا البحث قارئون لا سامعون . وإن يصل وجه المنفعة بهِ الى من لم تتح له الظروف الاستماع اليهِ حين التي في المؤتمر ، فأخرجهُ كتاباً تبقى مادتهُ وتحفظ معارفهُ ، ويرجع اليهِ في تحقيق علم أو درس مسألة من مسائل الفن الأسلامي ، وبالطبع زاد على البحث الملقى ما تقتضيه مصلحة النشر وما تستلزمه ضرورة الظهور في كتاب مستقل بنفسه قائم بذاته، وأطال في الكتابة بما لم يتسع له وقت المحاضرة وأضاف الى الكتاب لوحات فنية مطبوعة على اثنتين وثلاثين صفحة من الورق الجيد الصقيل

واستوى البحث بعد ذلك كتاباً قائماً ومتاعاً دائماً وضع فيهِ الدكتور الفاضل مقدمة مختصرة هي أحق أن تسمى تمهيداً للموضوع لا مقدمة للكتاب، أشار فيها الى عراقة الفن الصيني وتأصله في التاريخ ووجود وحدة فنية له ترجع الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح وتتصل الى وقتنا الحاضر وذكر فيها بعد ذلك في كلمات عواجل رؤوس الموضوعات التي سيتناولها بحثه ويشتمل عليها درسه ذاكراً في اختصار فضل العرب في رعاية الصناع وأهل الفنون من أهل الممالك المفتوحة والبلاد المغلوبة مما مهد للاسلام قيام فن جميل مستقل امتاز بطابع معين

أما موضوعات الكتاب فهي تجمع على اختلافها بين القيمة العلمية والنواحي الأدبية التاريخية والحق أنها مزيج من العلم والأدب والتاريخ . فاذا أفاد منها المؤرخ علماً أفاد منها الأديب تاريخاً أدبيًا

ومن الطبيعي أن يكون اول موضوعات الكتاب هو العلاقة بين الصين والشرق الأدنى . وكيف كان الاتصال بين هذين الركنين السحيقين من العالم المعروف في ذلك الحين

ويتدرج المؤلف في تدرج هذه العلائق حتى يصل الى اتصال المسلمين بالصين في أوائل القرن السابع الميلادي . وكيف دخل الاسلام هذه البلاد الشاسعة المدى البعيدة الأطراف .

وكيف زادت العلاقة السياسية بين العرب والصين في نهاية حكم الامبراطور الصيني (هسوان تسونج) الذي عاش صدراً من القرن الثامن الميلادي

ولا يقف المؤلف عند هذا الحد بل يتابع الاسلام في انتشاره هناك ويلاحق الجوالي من المسلمين النازلين بتلك البلاد في أزمان متعاقبة . ويؤيد كلامه في ذلك كله بحقيقة من بطون التاريخ، او تحقيق لمستشرق ، او رحلة لعربي جعل الصين وجهته ، والشرق الأقصى طيته . فيشير مثلاً الى الرحالة العربي سليمان الذي ساح في الهند والصين في منتصف القرن التاسع الميلادي وألف كتاباً في رحلته طبعه المستشرق Langlés ونشره المستشرق Reinaud مع ترجمة فرنسية

ويعرج المؤلف بعد ذلك في إيجاز لا يعوزه التحقيق على القرن العاشر الميلادي ، وكيف قلّ الاتصال فيه بين الصين والشرق الأدنى وذلك حين «عدم العدل وفسدت النيات» وانتشرت القرصنة في البحار على يد أقوام من السند يقال لهم الميدوم [1] (ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم)

والحق انهُ في هذا القرن بالذات لم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير «مقاتلة ونفاطين» [2]. وكانت جزيرة سقطرى بوجه خاص مركزاً خطراً للمتلصصة والقرصان وكانت تأوي اليها سفن القرصان ليقطعوا الطريق على المسلمين [3]. وكان بحر الهند لا يُركَب عند ما يهيج ويظلم ويصعب الركوب فيه [4] . ويستمر المؤلف في تتبع هذه الصلات الى عصر الدولة الصفوية التي بدأ بعدها الاضمحلال يتسرب الى الفنون الاسلامية مما جعلها تتجه وجهة جديدة شطر اوربا لمحاكاة فنونها ومضاهاة آثارها

ويلي فصلَ الصلات بين الشرق الأدنى والصين فصلٌ آخر عنوانهُ التحف الصينية والفنانون الصينيون في الشرق الأسلامي وفيه اشارات الى كلام جاء في الطبري وابن خرداذبة والقزويني والوزير رشيد الدين والغزولي وابن اياس والمقريزي والأبشيهي وغيرهم عن التحف واللطائف التي اشتهرت بها الصين ولقيت اقبالاً في الشرق الاسلامي . ويذكر المؤلف قبل ختام هذا الفصل الممتع شيئاً عن استيراد المسلمين أنواعاً من الورق الممتاز من بلاد الصين

والحق أن هذا صحيح فقد ذكره عريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري كما يقول الدكتور زكي . وذكره ايضاً الثعالبي كما قرأتُ فهو يقول أن كواغيد سمرقند عطّلتْ قراطيسَ مصر والجلودَ التي كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أجود وأصقل وأكثر موافقة للكتابة ولا تكون

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ (٢) المقدسي ص ١٢ (٣) المقدسي ص ١٤ ومروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ (٤) ابن رستة ص ٨٦ — ٨٧

الأ بسمرقند والصين[١] . ويخيل الي أن الوارد من الورق من بلاد الصين كان قليلاً وخاصة في القرن الرابع الهجري عند ما وجدت مصانع له في دمشق وطبرية[٢] وطرابلس الشام[٣] ولا شك أن إعجاب المسلمين بتحف الصين كان عظيما . والدكتور زكي في فصل تال لما تقدم يورد من النصوص التاريخية والأدبية مايؤيد هذا الكلام ويرجع في تحقيق هذا الفصل الى طائفة من الكتب منها لطائف المعارف للثعالبي والبلدان لابن الفقيه ومروج الذهب للمسعودي ونهاية الأرب للنويرى وخريدة العجائب لابن الوردي وابن بطوطة وغيرها من المراجع الاوربية

ويلي ذلك الفصل فصل عن مظاهر الأثر الصيني في الفنون الأسلامية . وهو بيت القصيد في هذا الكتاب وفيه تتركز الفكرة التي من أجلها تليت المحاضرة ونشر الكتاب

ولكن المؤلف الفاضل أوجز الكلام في هذا الفصل إيجازاً لم يكن فيه على حق، وقد كان باب الكلام أمامه مفتوحاً ، ومجال الحديث متسعاً ، وعنده من عُدة العالم وأداة الباحث وفيض المطلع ما يطيل له اسباب الكلام ، (فالورق) مثلاً وهو أول مظاهر الآثار الصينية لم يظفر من المؤلف بغير سطور قلائل . والتعبير عن الحركة والحياة في الرسم ، والرسوم التخطيطية بالمواد وهدوء الألوان واحتمال الفراغ وتلوين الجبال والمياه وأشكال الاواني والأساليب الصينية في الملابس وآلات القتال والسقوف المحدودبة وغير ذلك من أشباه هذه الموضوعات الطريفة كانت تقتضي من المؤلف الفاضل دراسة أوسع، واحاطة أجمع وبسطاً وتفصيلاً ونقداً وتحليلاً وتتبعاً وتقصياً . ولم يدَّع الدكتور زكي حسن في هذا الكتاب النفيس الدعاوى ، ولم يحاول أن ينكر فضل الذين أخذ عنهم واهتدى برأيهم حتى استقام له البحث ، فهو يشير في كل حقيقة الى مصدرها ويردها الى أصلها ، ولا يكتفي بذلك بل يضع في ذيل البحث ثَبْتاً بالمراجع العربية والأفرنجية مما لم يذكره في هوامش الكتاب . والحق أنهُ قرأ لإتمام هذا البحث فيضاً غزيراً من المادة العلمية المبعثرة في بطون الاسفار . وَعَرَض هذه المواد عرضاً علميًّا متسلسلاً متناسباً في طريقته التي عرفت بها مؤلفاته وكتبه القيمة

أما اللوحات الفنية فقد طبعت على ورق صقيل طبعاً يقرّب مادة الكتاب العلمية الى الأذهان تقريباً ويصورها تصويراً . وشُرحت كل لوحة منها شرحاً يردها الى مكانتها الفنية ومكانها الوضعي في الوجود وتاريخها وبعض خصائصها ومميزاتها الفنية

والكتاب في بحثه وصوره أثر جليل من آثار الصديق الكريم الدكتور زكي محمد حسن التي يتحف بها المكتبة العربية من حين الى حين

محمد عبد الغني حسن

(١) عن كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ج ٢ ص ٣٠٨ . وذلك نقلاً عن لطائف المعارف (٢) كما يقول المقدسي (٣) كما يذكر ناصر خسرو في رحلته

علم الامراض الباطنة

الجزء الرابع - أمراض جهاز الهضم — تأليف الدكتور حسني سبح — رئيس المعهد الطبي العربي بدمشق — طبع بمطبعة الجامعة السورية — ١٠٤٤ صفحة قطع المقتطف بالصور والرسوم والفهارس

هذا الكتاب العلمي المدرسي النفيس هو الحلقة الرابعة في سلسلة وقف الدكتور حسني سبح نفسه على انشائها . موضوع السلسلة العام علم الأمراض الباطنة . وقد جعلها خمس حلقات أصدر منها حتى الآن أربعاً ، الأولى في أمراض الجملة العصبية . والثانية في الأمراض الانتانية والطفيلية . والثالثة في امراض جهاز التنفس . والرابعة في أمراض جهاز الهضم . أما الخامسة ففي أمراض جهاز الدوران وهي قيد التحضير . وأصدر فيما بين الحلقتين الثالثة والرابعة كتاب فلسفة الطب . هذه المجلدات الضخمة هي في الواقع دائرة معارف طبية لا عهد للعربية بمثلها توسعاً وتحقيقاً وانتظاماً في العصر الحديث . وقد كتبت جميعها باللغة العربية المحكمة فجاءت مع غيرها من المؤلفات الطبية والعلمية والمعجمات دليلاً قائماً وحجة دامغة على اتساع اللغة العربية للعلوم الحديثة ، اذا صحت النية وعُقِد العزم على تكبد المشاق العظيمة التي يقتضيها التأليف العلمي

ولكننا ما زلنا نرنو الى يوم يستطيع فيه المؤلفون العرب في علوم الطب ، توحيد الألفاظ والمصطلحات . وحبذا الحال لو عني مجمع فؤاد الاول للغة العربية عناية عملية بما يؤلفهُ علماء دمشق في علوم الطب — وغيرها — وبما تحتوي عليه هذه المؤلفات من مصطلحات طبية ، بغية التوفيق والتنسيق بينها وبين ما يوضع في القاهرة . فان هذه العناية توفر وقتاً ثميناً علاوة أنها تكون خطوة موفقة نحو الوحدة في الالفاظ والمصطلحات الطبية التي لا بد من تحقيقها في سبيل المصلحة العربية العامة . وبعد فهذا الكتاب قسمان او بحثان عامان اولهما أمراض انبوب الهضم والثاني امراض توابع أنبوب الهضم . الاول يحتوي على أبواب وفصول في امراض الفم والبلعوم والمريء والمعدة والامعاء والثاني في امراض البانكره آس (رسم المؤلف) — ألا يجوز استعمال «الحلوة» مقابلاً للبنكرياس او البنقرياس او البانكره آس — والبريطون والكبد والطرق الصفراوية

ويقول الدكتور سبح في مقدمته «وسيجد القارىء في هذا الجزء بعض الابحاث الطريفة التي لم تنشر بعد في كتاب مدرسي ما ، وقد وجدت من الضروري الاهتمام بها بعد ما بدا من اغضاء معظم الاطباء عنها ، فضلاً عن اسس التدابير الغذائية والمداواة وهي المعول عليها في معالجة معظم امراض احشاء هذا الجهاز» وهو عند قوله وفي آخر الكتاب معجمان اثبت فيهما الجديد من الالفاظ والمصطلحات الطبية مما لم يسبق له استعماله في المجلدات السابقة . احدهما من العربية الى الفرنسية والثاني من الفرنسية الى العربية . وحبذا الحال لو صحت عزيمة المؤلف — بعد اصدار الحلقة الخامسة — على جمع جميع هذه المعاجم التي ألحقها بمؤلفاته ، في معجم واحد ووضع المقابل الانكليزي كذلك فيها اتماماً للفائدة . حقاً أن القلم لعاجز ايفاء الدكتور سبح حقه من الثناء على همته وما يبذله من علمه وفضله في هذه المؤلفات النفيسة

محمد فريد

رمز الاخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩ بقلم الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك
٥٢٦ صفحة من القطع الكبير — طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

اذا ذُكرت التضحية الخالصة لوجه الله والوطن ، والفدائية المترفعة عن أي جزاء أو ثمن ، برز اسم محمد فريد نوراً يلمع ، وحقًّا يسطع في تاريخ الأمة المصرية الحديث ، ونهضتها القومية التي ازدهرت ، ومدًّا لشعلتها القدسية التي اتقدت وما زالت تضيء الطريق وتهدي السارين

هو البطل الحقُ ، والشهيد الحقُّ ، والصريع الذي خرَّ في الميدان بعد ان حمل « لواء » الوطنية بعد الزعيم الأول ، واضطلع بالعبء الجسيم الذي خلفهُ له بطلٌ جاهدٌ فهدَّه الجهاد ، وجالد فأضناه الجلاد ، ونسي نفسه وشبابه في حب مصر فلقي الموت وهي في أشد الحاجة اليه — اضطلع بالعبء الجسيم بعد هذا البطل العظيم فوجدت مصر فيه الروح الذي حسبتهُ قد همد ، والأمل الذي ظنت انهُ قد خمد . فأسلمته مقاد نهضتها فلم ينم عن أمرها ، ولم يغفل عن واجبه نحوها وضحى بكل غالٍ في سبيل الغاية البعيدة للوطن العزيز ، واحتمل مرارة السجن مرة ، ومرارة النفي مرّات بعيداً عن أهله وأولاده وعشيرته ، يجد في مرارة هذا التشريد حلاوة الجهاد في سبيل العشيرة ، ويجد في ظلمة الوحدة لهب الوطنية ونورها مشتعلاً من وجدانه فظلَّ يحترق على مذبح الغاية السامية الى أن أسلم الروح ولم تكتحل عيناه بمرأى من مرائي وطنه ولا بطلعة من ولد أو عزيز اللهمّ الاَّ نفراً من خلصائه الذين أحاطوا بالهالة في الغربة يقبسون من نورها ويتلقون تعاليمها

لقد نزل هذا البطل الشهيد في سبيل مبدإه وعقيدته عن منصبه وجاهه ، عن كل ما يحرص الانسان عليهِ ، ولم يأسف على شيء ، ولم تلهه آلامه عن وطنهِ ، لقد ضحَّى بما لم يضحِّ بهِ زعيم ، فماذا لقيَ بعد ذلك ؟

اذا كان قد لقي في حياته من المرارات أشدها ، فقد لقي المقدّرون لهذه التضحية وهذه البطولة ايضاً اشد المرارات كلما انقضت الأعوام ولم يجدوا من أبناءِ الوطن تذكُّراً للواجب نحو البطل المنسي والشهيد الغريب في موته وفي قبره . ان في حياة فريد ، وفي سيرة فريد لدروساً عالية للبطولة ، وما أحوج مصر بل ما أحوج كل وطنٍ الى مثل هذه الحياة ومثل هذه السيرة !

ان حياة الأمم لا تقوم الاَّ على حياة ابطالها ، وسيرتها في التاريخ لا تنهض الاَّ على سِيَر قادتها وزعمائها ، فما احوجنا الى بعث الحياة في الوطن الغالي دائماً ببعث حياة ابطاله ونشرها على النشء ليتلقوا عنها الدرس الرائع ، ويتشربوا منها الوطنية الخالصة من كل غاية مادية

وليس أبطالنا — شهداء الوطن — ملكاً لهيئةٍ أو وقفاً على حزب ، ولكنهم ابناء مصر وغايتهم غاية كل فرد وكل حزب

ومن أعجب العجب ان تكون النهضة القومية قريبة العهد من جيلنا وقلَّ في هذا الجيل من يذكرها حقَّ الذكر أو يعرفها حق المعرفة ، وتلك وصمة في جبين الوطنية المصرية

ولقد اضطلع بعبء تاريخ النهضة القومية مؤرخ قدير ومطّلع بصير ، رجلٌ له من اتّزان الفكر والبعد عن الهوى ما يسّر له سبيله ومهد له طريقهُ فوضع للحركة القومية سجلاً رائعاً ، كان آخر ما أخرج منه تلك الترجمة القيمة للرمز الخالد للوطنية الحقة والتضحية الخالصة . وأعني بهذا المؤرخ : الاستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك ، وبهذا الرمز الخالد : البطل المنسي محمد فريد

ومن أجدر بتناول هذه الشخصية الفذّة في تاريخ الوطنية المصرية ومعرفة جوانب عظمتها وإظهار مراتب تضحياتها من الاستاذ الرافعي فهو من المخلصين للغاية السامية التي كان الفقيد يجاهد من أجلها ويتفانى في طريقها ؟ وهو من الذين آثروا مرارة الجهاد على حلاوة الجاه والمنصب ، ورزقوا الى جانب هذا كرامة الوطنية التي تأبى ان تجد الشعلة التي أنارت وليس من حولها من يذكرها ، فكان عمله في تاريخ البطل الشهيد مذكوراً عند الله وعند الوطن ، وعند ما يتنبه أهل هذا الوادي الى الواجب الاول عليهم نحو بطليْ هذا الوادي الأولين : مصطفى وفريد .

والكتاب يشتمل على سبعة عشر فصلاً يكشف كل فصل منها عن ناحية من نواحي هذه العظمة في نفس الفقيد من تاريخ نشأته ومراحل جهاده بين ربوع الوادي وفي مطارح الغربة وما لقي في كل ذلك من عنت واضطهاد وما بذل من كفاح وتضحية الى ان رجعت هذه النفس المطمئنة الى ربها راضية مرضية

وان تاريخ محمد فريد — كما ذكر الاستاذ الرافعي بك في مقدمته لهذه الترجمة — هو « ولا غرو تاريخ لسني الجهاد من فجر الحركة الوطنية الحديثة ، فلقد شارك مصطفى في بعثها منذ سنة ١٨٩٣ وتولى قيادتها بعد وفاته في فبراير ١٩٠٨ الى أن لحق بهِ بالرفيق الاعلى في نوفمبر سنة ١٩١٩ فكانت هذه السنوات الاخيرة صفحات مجيدة من تاريخنا القومي ولولا ماخطّـهُ فيها من تضحيات وآلام ، وما بعثهُ في نفوس الجيل من إخلاص وشجاعة ، وثبات وايمان ، لما كان لمصر تاريخٌ وطنيٌّ في ذلك العهد ، ولانقلبَ هذا التاريخ سلسلة من خضوع للاحتلال ، وضعف في الأخلاق . فهذه الحقبة من الزمن التي غذاها الفقيد بوطنيته وإخلاصهِ ، وبذل فيها ما بذل من مالهِ وقلمهِ ولسانهِ ، ورواها بروحهِ ومهجة فؤاده ، هي ولا ريب معينٌ لا ينضب من الفضائل القومية ، وأن هذا الكتاب ليتصل من هذه الناحية بالماضي والحاضر . أما صلتهُ بالماضي فلأنهُ يحتوي على تاريخ بطل من أبطالنا العظماء ، كما يشمل تاريخ مصر القوميّ من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٩ . وأما صلتهُ بالحاضر والمستقبل فلأن التاريخ يفسر بعضهُ بعضاً ، ولأننا في حاجة الى ان نسمو بمستوى الوطنية في قلوبنا ، ونحاسب أنفسنا على ما قصّرنا في

حق الوطن ، وتنمي عقيدة الايمان بالواجب بين طبقات الشعب ، يستوي في ذلك الكبير والصغير والغنيُّ والفقير ، والرجال والنساء ، والسياسي والمؤلف ، والزارع والصانع ، والتاجر والمالك والطبيب والمحامي والمهندس . هؤلاء جميعاً لو أدى كلٌّ منهم واجبه نحو الوطن لسعد بهم ، ولكانت حالنا خيراً مما نحن فيه . وان ذكرى الأبطال لخليقة بأن تطهّر نفوسنا ، وتبعث فيها روح الايمان بالواجب ، والاخلاص في أدائه . وانها لكتابٌ منشور تقرأ فيه الاجيال المتعاقبة آيات الوطنية الصادقة ، وقوّة العقيدة ، وتضحية المنافع الشخصية في سبيل سعادة الوطن ومجده ، وتلك لعمري عُدّة الأمم وذخيرتها الدائمة في حياتها العمومية»

ولقد أدّى الأستاذ الرافعي بك واجبه نحو الوطن — وما أعظم هذا الواجب ! — حين خلد ذكرى هذا الفقيد العظيم وحين سجل للزمن وللاجيال المتعاقبة دروس الوطنية الصادقة لتقوم هذه الأجيال ان لم يقم ابناء هذا الجيل بأداء ما في أعناقهم من واجب نحو هذا الذي لم يغفل يوماً عن ذكر وطنه يوم نسيه الذاكرون وغفل عن حقه ابناء الوطن الا من ظلت ضمائرهم متيقظة ونفوسهم متوثبة نحو أداء الواجب الأسمى . ولقد ضمّ هذا الكتاب الى قيمته التاريخية الجليلة قيمة أدبية بما اشتمل عليه من بعض المراثي التي قيلت في هذا الفقيد العظيم

فلله والوطن ما قدّم مؤرخ مصر الجليل ووطنيها الصادق . ولهُ حسن الجزاء عن صنيعه يوم يعرف أبناء الوطن حسن الجزاء، وليس هذا ببعيد

حسن كامل الصيرفي

الوراثة وتحسين النسل

تأليف حسين الابياري — صفحاته ٢٠٣ قطع وسط — مطبعة النصر بالقاهرة

قدم هذا الكتاب المفيد الى القراء حضرة الدكتور عبد المنعم محمد عاشور المدرس بكلية الزراعة بجامعة فؤاد الأول فقال : —

في خلال الخمسين عاماً الماضية عرف العالم كثيراً عن علم الوراثة ، ولكن الانسان وجه استفادتهُ ، كلها أو أغلبها ، من نظريات هذا العلم إلى تحسين نسل الحيوان ورفع انتاج محاصيل النباتات ونسي جنسه ، مع أن أهمية هذا العلم الأولى هي فيما يختص بتطبيق نظرياته على الانسان ، واستخدامها كوسيلة لتحسين نسله ، فكم سمعنا عن أسر تفشت فيها العيوب الوراثية التي عجز العلم الحديث عن علاجها ، فضلاً عما تكبد الدولة من مال تصرفه على الملاجىء والمصحات والسجون وغيرها ، وعلى النقيض كم سمعنا عن أسر عرف أفرادها بالنبوغ النادر والعقلية الفذة ولم تتمكن الدولة من الاستفادة بتلك المؤهلات بصفة عامة ، كذلك كم سمعنا عن حالات كان الأبناء فيها ضحية جهل الآباء وعدم تقديرهم لمسؤولية انتاج النسل التقدير الصحيح

هذه المشكلة الاجتماعية لا يمكن حلها إلاّ بمقدار تفهم المجتمع لمدى تطبيق القوانين الوراثية على الانسان ، تلك الناحية العملية التي لم يطرقها أحد — وأغلب ظني أن هذا صحيح — ممن كتبوا عن الوراثة في مصر

واليوم يسرّني أن اقوم بتقديم اول كتاب في هذا الموضوع وقد أودعهُ زميلي الاستاذ حسين الأبياري من المعلومات والبيانات ما ينير الطريق امام من يريد الوقوف على فائدة علم الوراثة وتطبيقه على الانسان ، ولقد جاء هذا المؤلف في الوقت الذي تنبهت فيهِ مصر الى ضرورة الاهتمام بالناحية الاجتماعية ،فبدأت الفكرة حينما فكر رفعة علي ماهر باشا بانشاء وزارة خاصة للشؤون الاجتماعية . ولا يفوتنا ان نذكر انه لا يمكن لأية حركة من هذا النوع أن تقوم على أكتاف رجال الحكومة وحدهم ، إذ لا بد أن يتعاون الشعب معهم ،بل هو مطالب بالقسط الأكبر من هذا المجهود ، ولقد جاء هذا الكتاب — في اعتقادي — خير ما يجد فيهِ رجل العلم والقارىء العادى حاجتهما من مبادىء الوراثة وتحسين النسل ، فهو رسالة علمية ،كما أنهُ رسالة شعبية ، جديرة بأن يقرأها كل مهتم بالشؤون الاجتماعية

بحث علمي لفتاة شرقية

لم نتعود حتى الآن نبوغ الفتيات الشرقيات في العلوم الطبيعية العالية ، مع اننا ألفنا تفوقهنَّ ونبوغهنّ في الأدب والتاريخ والتربية والتأليف فيها . ولكن اهتمام فريق منهنَّ بطلب هذه العلوم في اوربا وأميركا وانتظام الفتيات المصريات في كلية العلوم وبوادر نجاحهنّ في طلبها يمهدان الطريق لظهور الفتاة الشرقية في ميدان من البحث ألفناه حتى الآن مقتصراً على الرجال

ومن أحدث الأدلة التي وقفنا عليها ، المؤيدة لما تقدم ، بحث علمي أصيل في موضوع عويص في الكيمياء الحيوية . وقد نشر هذا البحث في مجلة جمعية طب العيون الأميركية في عددها الصادر في فبراير سنة ١٩٤١

موضوع البحث (١) امتصاص جزيئات مادة بروتينية خاصة للطاقة التي وراء البنفسجي وهو بحث دقيق يشمل القياس الطيفي المقابل لطائفة من المواد كالأحماض العطرة وعناصر البروتينات وما أشبه وقد قامت بهِ الآنسة سلوى نصار بالاشتراك مع زميلة لها تدعى جلاديس أنزلو في أثناء طلب العلم في كلية سمث الأميركية للبنات . وقد انتقلت الآنسة سلوى نصار الى جامعة كاليفورنيا للتوسع في فرع العلم الذي خصتهُ بعنايتها فنتمنى لها اتمَّ نجاحٍ وتوفيق —

The Absorption of Ultraviolet Energy by the Peptid Linkage (١)

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع والتسعين

٢٠١ الحرب والمرض
٢٠٨ بشّار بن برد في الحرب (قصيدة)
٢٠٩ العبقرية والجنون : لعلي أدهم
٢١٧ الدار الاسلامية في مصر : للصاغ عبد الرحمن زكي
٢٢٥ كيف يصل الماء الى رؤوس الأشجار الكبار
٢٢٨ المهندس المساح المصري : للمهندس حسن محمد
٢٣٦ معجزات الزجاج : لعوض جندي
٢٤٠ تطور الأسرة المصرية : للسيدة احسان احمد القوصي
٢٤٩ الأدب والعلم : مفاضلة بقلم أستاذ كبير
٢٥١ مصر وطريق الهند : لجمال الدين الشيال
٢٦٢ الحياة والموت : (قصيدة) لأبي الطيب المتنبي
٢٦٣ اللغة العربية : القبط وما يجب عليهم نحوها : لفريد كامل
٢٦٧ حديقة المقتطف * الشعر في المعارك والحروب : لمحمد عبد الغني حسن
٢٧٧ سير الزمان * مستقبل الذهب : لفؤاد محمد شبل — الخطر الذي يهدد المدنية : لنقولا الحداد

٢٩٥ باب المراسلة والمناظرة * حول عقيدة اشبنجلر : لعلي أدهم
٢٩٨ باب الاخبار العلمية * ملكات منفيات . لابراهيم موسى . فروع معهد ركفلر في أوربا . كيف تجدد الشمس نشاطها . السلفا نيلاميد والسل . فيتامين B وحالة الاعصاب . المواد القرنية غذاء . الاتوار (الهرمونات) وحب الشباب
٣٠٤ مكتبة المقتطف * الصين وفنون الاسلام : لمحمد عبد الغني حسن . علم الامراض الباطنة . محمد فريد لحسن كامل الصيرفي . الوراثة وتحسين النسل . بحث علمي لفتاة شرقية